خانية سراي الإسلامية

حاضرة مغول القبيلة الذهبية

جنوب نهر الفولجا

(٧١٢-٧٥٨هـ/١٣١٣-١٣٥٦م) دراسة حضارية

إعداد

د. صلاح عبد المولى السيد الشورى

المدرس بقسم التاريخ والحضارة - كلية اللغة العربية بالقاهرة

خانية سراي الإسلامية حاضرة مغول القبيلة الذهبية جنوب نهر الفولجا (٧١٢-٧٥٨هـ/١٣١٣-١٣٥٦م) دراسة حضارية

صلاح عبد المولى السيد الشورى

قسم التاريخ والحضارة – كلية اللغة العربية بالقاهرة

البريد الإلكتروني : **salahalshura@azhar.edu.eg**

المستخلص :

تعد منطقة نهر الفولجا من المناطق التي دخلها الإسلام منذ فترة مبكرة، عن طريق التجار والدعاة المسلمين الذين كان لهم الفضل الأول في نشر الإسلام في كثير من المناطق البعيدة عن حدود الدولة الإسلامية. وتعد خانية سراي الإسلامية من الخانيات المغولية التي استطاعت فرض سيطرتها على معظم البلاد التي تقع في حوض نهر الفولجا خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، ورغم حداثة دخولهم في الدين الإسلامي- في النصف الثاني من القرن السابع الهجري- إلا أنهم حرصوا على أن تعم مظاهر الحضارة الإسلامية(السياسية- الاقتصادية- الاجتماعية- العلمية) جميع شئون حياتهم، فعملوا على إنشاء المساجد والمدارس والزوايا، كما حرصوا على استقدام العديد من العلماء من شتى بقاع العالم الإسلامي؛ حتى أصبحت بلادهم لا تقل في مظاهر حضارتها الإسلامية عن المدن الكبرى في العالم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: بركة خان- سراي- الفولجا- أوزبك خان- القبيلة الذهبية- المرأة المغولية- الخاتون.

Islamic Khanya Saray, capital of the Golden Tribe Mongols south of the Volga River

(712-758Ah/1313-1356 A.D.) is a civilized study

Salah Abdul Mawla Al-Sayyid Al-Shura

Department of History and Civilization - Faculty of Arabic Language in Cairo

E-mail: salahalshura@azhar.edu.eg

Abstract

Volga River Region is one of the regions that Islam entered early on. Thanks to Muslim merchants and preachers who played the first and most valuable role to spread Islam in many areas far away from the Islamic State's borders. Islamic Khanate of Sarai is one of the Mongol khanates that managed to control most of the countries located in the Volga River Basin during the 8th century AH/14th century AD. Despite their recent entry into Islam - in the second half of the 7th century AH - they have made sure that the manifestations of Islamic civilization (Political - Economic - Social - Scientific) are prevailing in all of their life affairs، so they worked to establish mosques، schools and Zawaya (Institutions)، and they also took care to receive many scholars from all over the Islamic world; Their country is as much in its Islamic civilization as the major cities of the Islamic world.

Keywords: Baraka Khan - Sarai - Volga - Uzbek Khan - Golden Horde - Al-Khatoon.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الخلق، سيدِنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من والاه واتبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد

فتعد منطقة حوض نهر الفولجا من المناطق التي دخلها الإسلام منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، عن طريق التجار والدعاة المسلمين الذين كان لهم الفضل الأول في نشر الإسلام في كثير من المناطق البعيدة عن حدود الدولة الإسلامية.

إلا أن الانتشار الأهم للدين الإسلامي قد وجد طريقه إلى هذه البلاد- الواقعة على ضفاف نهر الفولجا- على يد مغول القبيلة الذهبية بعد تحولهم إلى الدين الإسلامي؛ فعملوا بكل طاقتهم على نشر الإسلام، خاصة في عهد خانية سراي الإسلامية، التي تأسست على يد زعيم مغول القبيلة الذهبية بركة خان، ومن بعده خلفاؤه من حكام هذه الخانية.

والمتتبع لأحوال هذه الخانية في مجالاتها الحضارية المختلفة يلاحظ مدى تأثرهم بمظاهر الحضارة الإسلامية، فرغم حداثة عهدهم بالإسلام فأنهم كانوا حريصين كل الحرص على أن تكون أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية متأثرة بالدين الإسلامي تأثرًا لا يقل عن المدن الكبرى في العالم الإسلامي.

ولم يكتفوا بهذا التأثر من الناحية الشكلية، بل نراهم يحاولون تطبيق ذلك عمليًّا من خلال اهتمامهم بإنشاء المساجد والمدارس والزوايا وغيرها من المنشآت التي تعمل على نشر تعاليم الدين الإسلامي، ونشر العلم وتفقيه شعوبهم في الدين، كما حرصوا على استقدام العلماء من

شتى بقاع العالم الإسلامي، فنجد في بلادهم العالم المصري، والخراساني، والعراقي، والأندلسي، وغيرهم من العلماء الذين كان لهم مكانة علمية كبيرة في العالم الإسلامي.

ولقد ظلت المدن الإسلامية التي تقع في جنوب حوض نهر الفولجا تتمتع بمظاهر الحضارة الإسلامية فترة طويلة، حتى استطاع الروس السيطرة عليهم وتحويليهم إلى تبعية دولة روسيا الاتحادية، ورغم هذا التحول إلا أن هذه المدن ظلت تحتفظ حتى الآن بمظاهر الحضارة الإسلامية التي ظلت شامخة؛ لتدل -بما لا يدع مجالاً للشك- على عظمة هذه الحضارة التي لا تزال مستمرة في مظاهرها حتى الآن، رغم العديد من الصعوبات التي تواجه الإسلام والحضارة الإسلامية في هذه البلاد.

ومن خلال البحث عن مظاهر الحضارة الإسلامية في حوض نهر الفولجا وقع اختياري على هذا البحث الذي جاء تحت عنوان: «خانية سراي الإسلامية حاضرة مغول القبيلة الذهبية جنوب نهر الفولجا(٧١٢-٧٥٨هـ /١٣١٣-١٣٥٦م) دراسة حضارية»، وقد وقع اختياري على هذه الفترة من حكم هذه الخانية – ستة وأربعين سنة- لأنها كانت من أعظم الفترات التي شهدت انتشار الإسلام ومظاهر الحضارة الإسلامية بجميع مجالاتها – السياسية، والإدارية، والاقتصادية، الاجتماعية، والعلمية- في البلاد الواقعة في حوض نهر الفولجا، خاصة علي يد أعظم سلطانين لهذه الخانية، وهما: السلطان محمد أوزبك خان شاة (٧١٢- ٧٤٢هـ/ ١٣١٣-١٣٤١م)، وابنه محمود جاني بك (٧٤٢-٧٥٨هـ/١٣٤١- ١٣٥٦م) اللذان كان لهما الدور الأكبر في أن يكون نهر الفولجا نهرًا إسلاميًّا خالصًا تنتشر به مظاهر الدين الإسلامي والحضارة

الإسلامية؛ بعد أن أخضعوا معظم البلاد الواقعة حول النهر لسيطرتهم سيطرة كاملة.

وقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى تمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة لأهم النتائج التي توصل إليها الباحث، ثم أعقبتها قائمة بالمصادر والمراجع.

أما التمهيد، فقد تحدثت فيه عن دراسة جغرافية لنهر الفولجا، من خلال حديث الجغرافيين والرحالة المسلمين عن اسمه ومنبعه ومصبه والشعوب التي عاشت قديمًا على ضفاف هذا النهر، كما تحدثت – عن ما سبق أيضًا– في العصر الحالي من خلال ما ذكره الجغرافيون المحدثون. كما أوضحت خلال هذا التمهيد كيفية دخول الإسلام إلى نهر الفولجا، وكيفية انتشاره، وتكوين خانية سراي الإسلامية .

أما المبحث الأول، فجاء تحت عنوان : «الأحوال السياسية والإدارية والعسكرية في خانية سراي»، وتحدثت فيه عن النظام السياسي والوظائف الإدارية في الخانية، كما تحدثت عن الجيش والتنظيمات العسكرية في الخانية.

أما المبحث الثاني، فيأتي تحت عنوان: «الحياة الاقتصادية في خانية سراي»، وجاء الحديث فيه عن الزراعة وأهم المحاصيل، والصناعة، والتجارة بنوعيها الداخلية والخارجية، وأهم الصادرات والواردات والبلاد التي كانوا يتاجرون معها.

والمبحث الثالث الذي جاء تحت عنوان :« الحياة الاجتماعية في خانية سراي» وتحدثت فيه عن سكان هذه الخانية، واحتفالاتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ومدى تأثرهم بالعادات والتقاليد الإسلامية، وختمت الحديث

في هذا المبحث عن المرأة التي كانت تتمتع بمكانة كبيرة للغاية؛ الأمر الذي أدهش كثيرًا من المؤرخين الذين تحدثوا عن خانية سراي.

أما المبحث الرابع، فعنوانه: « الحياة الثقافية والعلمية في خانية سراي»، وتحدثت فيه عن اللغة السائدة في بلادهم ومدي تأثرهم باللغة والثقافة العربية، وكذلك عن النشاط العلمي ومدى اهتمام حكام هذه الخانية بالعلم، والمنشآت التعليمية، وأشهر العلماء سواء الذين عاشوا في هذه الخانية أو الذين رحلوا إليها وأقاموا بها.

أما المبحث الخامس ، وعنوانه « العلاقات بين خانية سراي ودولة المماليك في مصر والشام»،

وسوف أتحدث فيه عن العلاقات بين خانية سراي ودولة المماليك باعتبارها أكبر الدول الإسلامية المعاصرة لخانية سراي.

الدراسات السابقة:

تناولت بعض الدراسات حياة المغول في حوض نهر الفولجا إلا أن هذه الدراسات ركزت في كثير منها على الجانب السياسي، والحروب التي خاضها مغول القبيلة الذهبية في سبيل توسيع سيطرتهم على حوض هذا النهر أو الحروب مع غيرهم من قبائل المغول، كما أن هذه الدراسات لم تفرد بحثًا- في حد علمي- عن مظاهر الحضارة الإسلامية لخانية سراي بصورة مفصلة؛ حتى يتضح مدى تأثر هؤلاء المغول حديثي العهد بالإسلام بالدين الإسلامي ومظاهر الحضارة الإسلامية، ومن هذه الدراسات:

- انتشار الإسلام بين المغول، للدكتور رجب عبد الحليم، دار النهضة العربية، مصر، ط١، د.ت.

- مغول القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق (٦٣٥-٧٣٦ه/١٢٤٦-١٣٣٥م) للدكتورة ، بهيرة محمد غلاب، رسالة دكتوراه بكلية الآداب ، جامعة طنطا، عام٢٠٠٠م.

-العلاقات بين دولة المماليك في مصر والشام ودولة مغول القبيلة الذهبية في القفجاق في عهد قلاوون وبنيه(٦٧٨-٧٨٤ه)، للأستاذ الدكتور/ عبدالله راجح، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، العدد السادس والعشرون ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.

-الأصول التاريخية للقبيلة الذهبية ودورها في نشر الاسلام بين المغول خلال العصر العباسي، للدكتورة/ سعاد هادي حسن الطائي، بحث منشور في مجلة الاستاذ، كلية التربية للعلوم الانسانية، العراق ،العدد ٧٦ عام ٢٠٠٨م.

- المرأة في خانية القبيلة الذهبية(مغول القبجاق) من خلال رحلة ابن بطوطة، للدكتور/ حسن على العلاق، بحث منشور بمجلة دراسات في التاريخ والآثار، العراق، العدد٧٠، يونيو ٢٠١٩م.

تمهيد

دراسة جغرافية لنهر الفولجا:

يعد نهر الفولجا من أطول الأنهار التي تجري في شرق قارة أوروبا[١] إذ يبلغ طوله حوالي ٣٧٤٠كم،[٢] وتبدأ منابعة من جبال وسط آسيا وجبال الأورال، ثم يتجه ناحية الجنوب ليتصل به بعض الروافد النهرية مثل: نهر أولكا « أوكا» من الغرب الذي يبلغ طوله ١٣٢٨كم، ونهر كاما من الشرق الذي يبلغ طوله ١٨٥٠كم[٣]؛ ليصب في

---

(١) تعد قارة أوروبا ثاني أصغر قارات العالم من حيث المساحة بعد قارة أستراليا إذ تبلغ مساحتها حوالي عشرة ملايين كم٢ تقريبا. وقد اختلف الجغرافيون في سبب تسميتها بهذا الاسم، فقيل: إنها مشتقة من الكلمة السامية« أرب» والتي تعني غروب الشمس أو الأرض التي تقع في الغرب؛ تمييزًا لها عن قارة آسيا التي أُطلق عليها «آسو، أي: أرض الشرق» وقيل : إنها مشتقة من الكلمة الفينيقية « أريب» والتي تعني غروب الشمس، ويرى أخرون أنها مشتقة من أوروبا، وهو اسم أحد الآلهة عند الإغريق، أو نسبة إلي يوريا ابنة فينكس حسب ما ورد في الأساطير الإغريقية. للمزيد راجع: حسام جاد الرب: جغرافية أوروبا الجديدة– دراسة إقليمية، مكتبة دار العلوم للنشر، مصر، ط١، عام ٢٠٠٧م، ص ١٨؛١٧، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، نشر عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ط١، عام ١٩٩٩م، ج١٤، ص١٩.

(٢) على موسى ومحمد الحمادي: جغرافية القارات، دار الفكر المعاصر، بيروت، د.ط، عام ٢٠٠١م، ص ٤٢؛٤١، حسام جاد الرب: جغرافية أوروبا الجديدة، ص٦٤.

(٣) علي موسى ومحمد الحمادي: جغرافية القارات، ص٤٢، حسام جاد الرب: جغرافية أوروبا، ص٦٤.

بحر الخزر [١].

أما عن نهر الفولجا عند الجغرافيين والرحالة المسلمين، فقد تحدثوا عن هذا النهر واصفين مسيرته ومنبعه ومصبه والبلاد التي يمر بها؛ فكان يُعرف النهر في المصادر الجغرافية العربية باسم نهر إِتِلُ[٢] الذي ينبع من جبال الشمال- والتي تقع على الحدود بين آسيا وأوروبا- وتتجمع مياهه من عددٍ من الروافد النهرية، منها: نهر أرتش الذي يتميز بغزارة مياهه و كثرة مادة الغرين والطمي به [٣].

---

(١) هو اسم أطلقه الجغرافيون المسلمون على البحر المعروف حاليا باسم بحر قزوين، وكان يعرف عندهم أيضا بعدد من الأسماء منها: بحر طبرستان وجرجان، والخزاسانيّ والجيليّ، والدّوّارة الخراساني. الأصطخري" إبراهيم بن محمد الفارسي، المعروف بالكرخي، ت:٣٤٦هـ/٩٥٧م" المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، د.ط،٢٠٠٤م، ص٤١٧، الحموي " شهاب الدين، ياقوت ابن عبد الله الرومي، ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م" معجم البلدان ، دار صادر، بيروت، ط٢، عام ١٩٩٥م، ج١، ص٣٤٢. يعد بحر قزوين من أكبر البحار المغلقة في العالم، ويقع علي الحدود بين قارتي آسيا وأوروبا وهو من البحار التي يصعب الملاحة بها؛ بسبب شدة العواصف التي يتعرض لها. حسام جاد الرب: جغرافية أوروبا الجديدة، ص٢١.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك، ص١٩، ابن حوقل" محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، ت: بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م" صورة الأرض، دار صادر، بيروت، د.ط، ١٩٣٨م، ج٢، ص٣٨٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٨٧ .

(٣) مجهول (توفى: بعد ٣٧٢هـ /٩٨٢م) حدود العالم من المشرق إلى المغرب، محقق ومترجم الكتاب عن الفارسية، السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص٦٠.

أما عن التسمية بهذا الاسم، فقد أشار الجغرافيون المسلمون إلى أنه سُمي بذلك نسبة إلى المنطقة التي يمر بها، وهي المعروفة باسم مدينة إتل التي يفصلها النهر إلي جزئيين: شرقي وغربي(١) والتي كانت عاصمة لمملكة الخزر(٢). وعلى ضفاف هذا النهر وروافده المتعددة عاشت العديد من الشعوب معتمدة على التربة التي كونتها مياهه بفعل

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ج٢، ص٣٨٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٨٧.

(٢) هم قوم من الأتراك عُرف عنهم التنقل والترحال، خرجوا من بلادهم الأصلية في سهوب وسط آسيا، وأقاموا بجوار نهر إتل – الفولجا- على شواطئ بحر الخزر – قزوين حاليا- واستطاعوا التوسع على حساب جيرانهم حتى أسسوا مملكة قوية عرفت بمملكة الخزر اليهودية، كانت لها علاقات وحروب طويلة مع الدولتين الإسلامية والبيزنطية، ومن أشهر مدنهم: إتل، وسمندر وغيرهما. تتبع بلادهم حاليا دولة روسيا الاتحادية. وقد أفاضت المصادر الإسلامية في الحديث عن هذه المملكة من حيث: أصولهم ومظاهر الحضارة المختلفة في بلادهم. للمزيد راجع: الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٢٢-٢٢٥، المسعودي" أبو الحسن على بن الحسين بن على، ت: ٣٤٦هـ /٩٥٧م" مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، أسعد داغر، دار صادر ، بيروت، د.ط، ٢٠٠٤م، ج١، ص ٢٠٢-٢٠٧، محمد عبدالشافي المغربي: مملكة يهود الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط١، ٢٠٠٢م، ص٣٧، زمان عبيد وناس: مملكة الخزر وأحوال المسلمين فيها- دارسة في كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين حتى نهاية القرن الثامن الهجري، بحث منشور بمجلة كربلاء العلمية، ملجد١٢، العدد الثاني، ٢٠١٢م، ص ٤٧.

الإرسابات لمادتي الطمي والغرين منها: شعوب الخزر الذي أقاموا في الجزء الجنوبي الشرقي من حوض النهر، والبجناكيّة[١]، والصقالبة[٢]، والبلغار[٣] الذين أقاموا في الحوض الأوسط للنهر

(١) هم شعوب من قبائل القفجاق التركية انتقلوا من بلادهم الأصلية في سهوب وسط آسيا وأقاموا على ضفاف نهر الفولجا، وهم أصحاب خيام وقباب ومواش، يتنقلون في البلاد بحثا عن الكلأ. للمزيد راجع: الأصطخري: المسالك والممالك، ص١٨، الأنصاري" شمس الدين أبي عبد الله محمد الدمشقي، ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٥م" نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة أكاديمية الإمبراطورية الألمانية، ط١، ١٨٦٥م، ص٢٦٣؛٢٦٤ محمود سعيد عمران: إدارة الإمبراطورية البيزنطية في عهد قسطنطين السابع، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ص١٣٦؛ ١٣٧.

(٢) تسمية الصقالبة أو السلاف(Slaves) أطلقها الجغرافيون العرب على عدد من الشعوب المنحدرة من أصول شتى، كانت تقيم في الأراضي المجاورة لبلاد الخزر بين القسطنطينية وأرض البلغار، ومنهم من سكن شمال شرق القارة الأوربية وعلى ضفاف نهر الفولجا. ومفرد صقالبة: صقلب أو صقلبي أو صقلابي، ثم أصبح لفظ الصقالبة يستخدم للرقيق الأبيض، حيث كان النخاسون يحملونهم، ويتاجرون بهم في أنحاء العالم. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٤١٦، محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، ج٢١، ص ٢٦.

(٣) اسم أُطلق على الشعوب التي سكنت في الجزء الغربي من نهر الفولجا، وسموا بذلك نسبة إلى المكان الذي ظهروا به، وهم يشبهون الصقالبة في الشكل والقدرة على القتال . للمزيد عنهم راجع: ابن فضلان" أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، توفي بعد ٣١٠ه/٩٢٢م" رحلة ابن فضلان لبلاد الروس والترك ==

على مقربة من مدينة قازان[١] الحالية[٢]، والـروس[٣] والـذين كـانوا يمثلون الجزء الأكبر من الشعوب التي كانت تعيش حـول حـوض هـذا النهر حتى إن الجغرافيين المسلمين أطلقوا على نهر إتل- الفولجا – نهر الروس[٤]، بالإضافة إلى غيرها من الشعوب الصغيرة التي كانت تتأرجح في تبعيتها للشعوب الكبيرة التي كانت تحيط بها.

==

والصقالبة، تحقيق، سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق، ط١، د.ت، ص ٦٧؛٦٨، ياقوت الحموي معجم البلدان، ج١، ص٨٨، محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٢١، ص٣٠.

(١) تعد مدينة قازان هي العاصمة السياسية والاقتصادية لجمهورية تتاريا(تتارستان) الحالية، والتي تعد إحدى الجمهوريات الروسية حاليا، وتعد من المناطق الصناعية؛ فيوجد بها مجمع لصناعة الطائرات والقاطرات والمطاط وغيرها. حسن حلاق: مدن وشعوب إسلامية، نشر دار الراتب الجامعية، بيروت، ط١، د.ت، ص ٣٥٤، آمنة أبو حجر: موسوعة المدن الإسلامية، دار أسامة، الأردن، ط٢، عام ٢٠١٠م، ص ٢٤٠.

(٢) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، دار الرائد، بيروت، د.ط، عام ١٩٨١م، ص ٢٦.

(٣) هي بلاد روسيا المعروفة حاليا وقد وصفتها المصادر الإسلامية بأنها بلاد واسعة يحدها شرقًا: جبل البجناك، وغربها: بلاد الصقالبة؛ وشمالها: خراب الشمال. وملكهم يقال له: خاقان الروس. وتعد بلادهم في غاية الوفرة وفيها من كل شيء. وتوجد مروءة لدى فريق منهم. وهم يعظمون الأطباء، ويعطون العشر من كل غنائمهم وتجاراتهم إلى ملكهم كل سنة. وبينهم فريق من الصقالبة يخدمونهم. للمزيد راجع: مجهول: حدود العالم، ص١٨٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٨١.

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض، ج٢، ص ٣٨٨.

انتشار الإسلام في حوض نهر الفولجا وتكون خانية[١] سراي:

لا يُعرف على وجه التحديد متي بدأ الإسلام يطرق أبواب منطقة نهر الفولجا؟ إلا أنه من خلال استقراء المصادر الإسلامية نلاحظ أن الإسلام دخل إلي هذه المنطقة منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، فقد ذكر ابن النديم[٢] أن ملك البرغر-البلغار- وهي أحد الشعوب الكبيرة التي كانت تقيم حول نهر الفولجا -أرسل رسالة إلى الخليفة العباسي المأمون[٣] يسأله فيها عن كثير من أمور الدين الإسلامي وأصول التوحيد[٤].

---

(١) تنسب الخانية إلى الخان، والتي تعني عاصمة الملك أو السلطنة عند المغول. محمد محمد الرمزي: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، قدم له وعلق عليه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ٢٠٠٢م، ج١، ص٣٥٩.

(٢)" أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي ، ت: ٤٣٨هـ/١٠٤٦م، الفهرست، تحقيق، إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤١٧ه/١٩٩٧م، ص١٦٨.

(٣) عبد الله بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، كان يكنى بأبي العباس، وقيل: أبو جعفر المأمون بن الرشيد ، ولد سنة سبعين ومائة، عُرف بحبه للعلم منذ صغره. تولي الخلافة عام ١٩٨ه، وتوفي عام ٢١٨ه. ابن عساكر" أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، ت: ٥٧١ه/١١٧٦م" تاريخ دمشق، تحقيق، عمرو بن غرامة العمراوي، دار الفكر، بيروت ط١، عام ١٤١٥ه/١٩٩٥م، ج٣٣، ص٢٧٥، السيوطي "عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م" تاريخ الخلفاء، تحقيق، حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفي الباز، القاهرة، ط١، ١٤٢٥ه/٢٠٠٤م، ص ٢٢٥.

(٤) يرى الباحث أنه حدث خلط عند ابن النديم بين الرسالة التي وصلت إلى الخليفة ==

كما أن ابن رسته – وهو من جغرافي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي– عند حديثه عن البلغار ذكر أن ملكهم ويُعرف باسم ألمش كان ينتحل الإسلام، وأن أكثر شعبه كان ينتحل الإسلام أيضًا، ولهم في محلهم مساجد وكتاتيب ومؤذنون وأئمة [1].

كما أن ابن فضلان وهو أيضا من الرحالة المشهورين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، قد أرسله الخليفة العباسي المقتدر[2] (٢٩٥ـــــ٣٢٠ هـ/٩٠٧ ـــ٩٣٢م) على رأس بعثة عام ٣٠٩هـ/٩٢١م إلى بلاد البلغار والصقالبة، بناءً على طلب من «ألمش بن يلطور» ملك البلغار، الذي أرسل رسالة إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يرسل إليه من يفقّهه في الدين، ويعرّفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجدًا وينصب له منبرًا؛ ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، فأجاب الخليفة

==

المأمون وبين الرسالة التي وصلت إلى الخليفة المقتدر من ملك البلغار؛ إذ إن سبب إرسال الرسالة واحد، كما أن ما أورده ابن النديم قد تفرد به، فلم يجد الباحث ذكرًا – في حد علمه– عن ذلك الخطاب الذي وصل للمأمون من ملك البلغار إلا عند ابن النديم فقط .

(١) "أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، ت: بعد عام ٣٠٠هـ/٩١٢م" الأعلاق النفيسة (المجلد السابع)، طبعة ليدن ، ط١، ١٨٩١م، ص ١٤٥.

(٢) أبو الفضل جعفر بن المعتضد، ولد في رمضان سنة ٢٨٢ه، بويه له بالخلافة عام ٢٩٥ه وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وتوفي عام ٣٢٠ه. ابن الجوزي "جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، ت: ٥٩٧هـ/١٢٠٠م" المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ /١٩٩٢م،ج٦، ص٦٧، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٤٧.

طلبه؛ وأرسل إليه بعثة إسلامية مكونه من أربعة أفراد(١)، وقد قدم ابن فضلان وصفًا دقيقًا لهذه البلاد خلال رحلته التي استمرت أحد عشر شهرًا، زار خلالها عديدًا من البلاد والشعوب التي تقيم حول مجري نهر الفولجا(٢).

ومن العرض السابق يتضح أن الإسلام قد بدأ في الانتشار في منطقة حوض نهر الفولجا في زمن مبكر من التاريخ الإسلامي؛ وذلك لما ذكره ابن رسته في حديثه عن بلاد البلغار، ووصفهم أنهم مسلمون، كما أن ابن فضلان في أثناء زيارته لبلاد البلغار الواقعة في حوض نهر الفولجا خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ذكر أنه شاهد عددًا من العمال والصناع العرب والمسلمين في بلاط ملكهم، مثل خياط الملك الخاص الذي كان بغداديا ، كما ذكر في أكثر من موضع من رحلته أنهم كان لهم مساجد يُؤَذَّن فيها لإقامة الصلوات المفروضة، فهذا يدل على أنهم كانوا مسلمين قبل وصوله مع بعثة الخليفة إليهم. يقول ابن فضلان: « ودخلت أنا وخيّاط، كان للملك من أهل بغداد... فإذا بالأذان؛ فخرجنا من القبّة وقد طلع الفجر، فقلت للمؤذّن: أي شيء أذّنت؟ قال: أذان الفجر» (٣).

وعلى هذا يمكن القول: إن بعثة ابن فضلان التي تمت خلال القرن الرابع الهجري لم يكن هدفها هو نشر الدين الإسلامي – الذي كان

(١) هم: أحمد بن فضلان، وسوسن الروسي، وتكين التركي، وبارس الصقلابي. رحلة ابن فضلان ، ص ٤٢.

(٢) رحلة ابن فضلان، ص ٤٢ وما بعدها.

(٣) رحلة ابن فضلان، ص٨٣؛٨٤.(بتصرف)

موجودًا أصلا بها- إنما جاءت لتبصيرهم بأمور الدين الإسلامي وتعليمهم المفاهيم الصحيحة للشريعة الإسلامية، كما كانت لتوثيق العلاقات بين شعوب البلغار والصقالبة أكبر الأمم في منطقة نهر الفولجا وبين المسلمين، وأيضًا رغبة منهم في الاستفادة من قوة الدولة العباسية (١).

أما عن الطريقة التي بدأ الإسلام بها ينتشر في هذه البلاد البعيدة عن الدولة الإسلامية ، فقد وقع شبه اتفاق بين الباحثين أن التجار والدعاة المسلمين كان لهم الفضل الأكبر في نشر

الإسلام في البلاد البعيدة عن مناطق نفوذ الدولة الإسلامية (٢).

وفي هذا السياق يمكن أن يذكر الباحث ما سطره الكاتبان الفرنسيان «الكسندر بينغسن وشانتال لومير سية» في كتابهما (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي) :« فمنذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي- اصطحب التجار والسفراء العرب معهم دين محمد إلى مملكة البلغار القائمة على المجرى المتوسط لنهر الفولجا... ومع انتهاء القرن الرابع

---

(١) حسن حلاق: مدن وشعوب إسلامية، ص ٣٥٦، محمد كريم الشمري: التأثير العربي على بلاد البلغار من خلال رحلة ابن فضلان(٣٠٩ه/٩٢١م) بحث منشور بمجلة القادسية للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد التاسع، العددان٣،٤، عام ٢٠٠٦، ص ١٦.

(٢) محمد على البار: المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ ، دار الشروق ، جدة ، ط١، ١٩٨٣م،، ج١، ص ٣٨، أمنة أبو حجر: موسوعة المدن الإسلامية، ص ٣٦٩ .

الهجري/ العاشر الميلادي كانت المنطقة قد أصبحت في معظمها وقفًا على الإسلام» [١].

لكن الخطوة الكبيرة لنشر الإسلام في منطقة حوض نهر أتل« الفولجا» كانت على يد مغول القبيلة الذهبية[٢]، الذين تحول كثير منهم إلى الدين الإسلامي بعد إسلام زعيمهم الكبير بركة خان[٣]، فبعد إسلامه[٤] وتوليه

---

(١) ترجمة عبد القادر ضللي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص٩ .

(٢) هم أحدى قبائل المغول، وتنسب إلى جوجي خان الابن الأكبر لجنكيز خان، الذي قسم إمبراطورتيه قبل وفاته بين أبنائه الأربعة (جغتاي- أوكتاي- تولوي- جوجي)، فمنح ابنه جوجي- الذي توفى في حياة أبيه- معظم الأجزاء الغربية من الإمبراطورية في المناطق الواقعة في حوض نهر الفولجا، والأقاليم الواقعة حول بحر الخزر – قزوين- الذي وضع أساس تكوين هذا الفرع من المغول، الذي أُطلق عليه اسم مغول القفجاق أو الشمال أو مغول القبلية الذهبية. وقد اختلف المؤرخون في سبب تسميتهم بالذهبية، فقيل: نسبة إلى خيامهم ذات اللون الذهبي، وقيل: لروعة معسكرهم. للمزيد راجع: البناكتي "أبو سليمان داود بن أبي الفضل، ت: ٧٣٠ هـ/١٣٢٩م" روضة أولي الألباب في معرفة التواريخ والأنساب=تاريخ البناكتي، تعريب، محمد عبد الكريم علي، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٤٣٠،٤٢٩، رجب عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، مصر، ط١، د.ت، ص ١٠٤.

(٣) الخان: كلمة أعجمية وتعني السلطان أو الملك. ابن بطوطة" محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم، ت: ٧٧٩هـ /١٣٧٧م" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه ووضع فهارسه، عبد الهادي التازي ، نشر أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ، ط١، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م، ج٢، ص ٢٢٨، الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص٣٥٩.

(٤) اختلف المؤرخون في الوقت والكيفية التي دخل فيها بركة خان بن جوجي بن ==

زعامة قبيلته عام ٦٥٤ه/ ١٢٥٦م بدأ العمل على نشر الإسلام في المناطق التابعة له في حوض نهر الفولجا، حتى استطاع تأسيس مملكة إسلامية خالصة، تشمل معظم البلاد الواقعة حول حوض النهر؛ حتى أصبح الفولجا من منبعه حتى مصبه نهرًا

==

جنكيز خان في الإسلام، ولكن ما عليه أكثر المؤرخين أنه اعتنق الدين الإسلامي قبل تولية حكم مغول القبيلة الذهبية خلفا لابن أخيه صرطق، وأنه أظهر إسلامه بعد توليه الحكم. أما عن كيفية إسلامه فما عليه غالبيتهم –أيضًا– أنه أسلم علي يد الشيخ «سيف الدين أبو المعالي، سعيد بن المطهر بن سعيد بن علي الباخرزي»، شيخ مدينة بخارى، الذي كان يُعرف عند المغول بألغ شيخ وتعني الشيخ الكبير، فعندما أراد بركة الدخول في الإسلام قام بزيارة الشيخ في مدينة بخارى وتحدث معه في كثير من أمور الدين الإسلامي، فطابت نفسه لاعتناق الإسلام، وقيل: أنه طلب من الباخرزي أن يؤلف له رسالة تؤيد دعوة الرسولﷺ ودحض ما ذكره المعارضون له؛ فألف له كتابًا يؤيد صدق الدين الإسلامي. للمزيد راجع: الذهبي "شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م" سير أعلام النبلاء، تحقيق، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٢٣، ص٣٦٦، ابن خلدون "عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ت: ٨٠٨ه /١٤٠٥م" العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر = تاريخ ابن خلدن، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ، ط ٢، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م، ج٥، ص ٦٠٣، الرمزي: تلقيح الآثار، ج١، ص ٤٠١-٤٠٦.

إسلاميًّا خالصًا [١]، متخذًا من مدينة سراي[٢]–ساراتوف حاليا–عاصمة لمملكته الجديدة [٣].

والحقيقة أن بركة خان لم يكتف بمجرد نشر الإسلام في المناطق التابعة لمملكته[٤] بل عمل على أن تصبح الشعائر الإسلامية صبغة مميزة لها؛ فعمل على استقدام علماء الدين من البلاد الإسلامية؛ فقدم عليه

---

(١) محمد على البار : المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ج١، ص٤٢.

(٢) السراي في الأصل كلمة فارسية نقلها الترك عن الفرس، وهي تعني الملاذ الآمن أو المدينة الآمنة، وكان المغول في البداية يطلقونها على المكان الذي يقيم فيه الخان– الحاكم– ثم اتسع معناها فأصبحت تطلق على المدينة بصورة كاملة، ثم اتسع المعني بصورة أوسع ليتم إطلاقه على المدن التي تتبع الحاكم الذي يقيم في السراي. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة، أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩م، ص ١٨٩.

(٣) محمد على البار: المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ج١، ص٣٠١، آمنة أبو حجر: معجم المدن، ص ٣٦٩.

(٤) كان يوجد عديد من الأديان التي تنتشر بين المغول، إلا أن الديانة السائدة بين جموعهم كانت هي الديانة الشامانية، وهي كلمة تعني باللغة التركية الساحر أو الطبيب الروحي أو الكاهن الأكبر، ويرى بعض الباحثين أنها لم تكن ديانة بالمعني المتعارف عليه؛ فهي لا تقوم على أسس دينية أو أخلاقية، ولكنها كانت عبارة عن مجموعة من الطقوس التي ترتبط باتحاد الروح بين الأحياء والأموات، أو مع الآلهة والشياطين، ومع ما لا يحصى من الوجوه الغيبية التي لا يراها البشر. للمزيد راجع: بارتولد: تاريخ الترك، ص ٢٦، فراس السواح: موسوعة الأديان، دار التكوين للنشر، سوريا، ط٤، عام ٢٠١٧م، ص ١٧٥.

مجموعة من علماء الحجاز ومصر والعراق؛ فأحسن إليهم وبالغ في إكرامهم(١).

وبفضل هذه السياسة التي اتبعها بركة خان في نشر الدين الإسلامي أصبحت مملكته وخاصة مدينة سراي مجمع أهل العلم والسعادات(٢)، فكانت المساجد تنتشر في أماكن متعددة حتى إن بعضها كانت عبارة عن خيام تُحمل معه ولزوجاته أينما ذهب، ولها أئمة ومؤذنون، وتقام فيها الصلوات الخمس (٣).

لكن الخطوة الأهم والأعظم في انتشار الدين الإسلامي كانت على يد محمد أوزبك خان بن طغرل شاة (٧١٢- ٧٤٢هـ/ ١٣١٣-١٣٤١م) الذي تولي الحكم بعد وفاة عمه(٤)

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق، بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م ، ج١٥، ص ١١١، ابن عربشاة "أبو محمد أحمد بن محمد، المعروف بابن عربشاه، ت: ٨٥٤هـ/١٤٥٠م" عجائب المقدور في أخبار تيمور، كلكتا، الهند، د. ط، ١٨١٧م، ص ١١٦، الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٤٠٥.

(٢) الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٤٠٥.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ، ج ١٥، ص ١١١، الصفدي" صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ، ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٢م" الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٠، ص٧٤.

(٤) توفي طغطاي(طقطاي) بن منكو خان، عام ٧١٢هـ، ولم يخلف وريثًا للحكم، فاتفق قطلقتمر الذي كان يتولى تدبير حكم خانية القبيلة الذهبية مع بيالون زوجة أخيه طغرل شاة على تولية ابنها محمد أوزبك خان الحكم. راجع: ابن كثير" أبو الفداء ==

طقطاي[١]، فعمل على استكمال نشر الإسلام في الجزء الجنوبي والأوسط من حوض نهر الفولجا[٢]؛ حتى أصبحت مظاهر الحضارة الإسلامية هي المظهر السائد في هذه البلاد البعيدة عن كبريات المدن الإسلامية، وهو ما سوف يتم تناوله خلال هذا البحث إن شاء الله.

==

إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: ٧٧٤ه /١٣٧٢م" البداية والنهاية، تحقيق، علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨ه/١٩٨٨م، ج١٤، ص ٧٦، ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ٦٠٦.

(١) طقطاي بن منكوتمر بن طوغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكزخان، تولى الحكم عام ٦٩٠ بعد مقتل تلابغا. كان محبًا للخير، ورغم عدم دخوله في الإسلام إلا أنه كان حريصا على تقدير المسلمين احترامهم توفي عام ٧١٢ه. الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت ، ط١ــ عام ، ١٤١٨ هــ /١٩٩٨ م، ج٢، ص ٦١٤، ابن حجر العسقلاني " أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، ت: ٨٥٢هــ /١٤٤٨م" الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق، محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط٢، ١٩٧٢م ، ج٢، ص ٣٨٩.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة، حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة نهضة مصر، ط٢، ١٩٧٠م، ص ٢٧١.

وبعد وفاة محمد أوزبك خان عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م تولى ابنه محمود جاني بك[١] (٧٤٢-٧٥٨هـ/١٣٤١- ١٣٥٦م) [٢]، الذي واصل سياسة والده في نشر الإسلام في البلاد التابعة له في حوض نهر الفولجا حتى أصبحت بلاده مستقرًا للعلماء والفقهاء [٣].

وبعد وفاته تولى عدد من الخانات لم تكن سياستهم على نفس سياسية أسلافهم من الحكام السابقين؛ مما أدى إلى حدوث خلافات نتج عنها انقسام خانيتهم لعددٍ من الخانيات المستقلة عن سيادة خانية سراي[٤]،

---

(١) بك: من الألقاب التركية القديمة، وتعني الأمير أو صاحب الأمر وشاع استخدمها بين المغول. سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، نشر مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط، عام ٢٠٠٠م، ص ٦٣،٦٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٦٠٧، محمد سهيل طقوش: تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند، دار النفائس ، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٨١.

(٣) سهيل طقوش: تاريخ مغول القبيلة الذهبية، ص ٨١.

(٤) من أشهر هذه الخانيات: خانية الحاج طرخان، وتنسب إلي حاجّ من الصالحين، نزل بموضعها وحرّر له السلطان ولايتها فجعلها مدينة عظيمة. رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٤٠. تعرف هذه المدنية حاليا باسم «أستراخان»، وهي من المناطق التي تتمتع بحكم ذاتي في ظل الاتحاد الروسي، تبلغ مساحتها حوالي مائة ألف كم٢، وعدد سكانها حوالي أربعة ملايين نسمة. آمنة أبو حجر: معجم المدن، ص ٣٧٠. وخانية قازان : تتبع هذه المدينة حاليا جمهورية تتاريا التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي السابق، يوجد بها عديد من المعالم الأثرية الإسلامية، مثل: مسجدها الجامع، الذي يعد من المساجد التي يقصدها الزائرون للمدينة. آمنة أبو حجر: معجم المدن، ص ٢٤١. وخانية القرم: أسسها حاجي كراي. للمزيد عن هذه الخانيات وغيرها، راجع: الرمزي: تلفيق الأخبار، ج٢، ص ٧ وما بعدها، محمود شاكر: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج٢١، ص٥٦، ==

والتي بدأ يدب الضعف فيها نتيجة للصراعات المستمرة بينها حتى استولى القيصر الروسي إيفان الرابع المعروف بالرهيب[١] عليها الواحدة تلو الأخرى؛ حتى أصبح الحوض الجنوبي لنهر الفولجا تابعًا للسيادة الروسية بكامله عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م بعد أن كان نهرًا إسلاميًّا خالصًا.[٢]

==

محمد علي البار المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ج١، ص ٨٥. راجع الخريطة المرفقة نهاية البحث.

(١) إيفان الرهيب أمير موسكو العظيم وقيصر عموم روسيا الأول، توج أميراً لموسكو ١٥٣٣م، وهو في السادسة عشرة من عمره، ونصب قيصرًا على عموم روسيا عام٣٥٤هـ/ ١٥٤٧م. خاض حروبًا دموية استطاع خلالها توسيع أراضي روسيا، وجعل منها إمبراطورية مترامية الأطراف. ظل قيصرًا على روسيا حتى وفاته عام ١٥٨٤م. للمزيد راجع: ستيفان غراهام: إيفان الرهيب أول القياصرة، ترجمة، يوسف شلب الشام، منشورات دار الثقافة، سوريا د.ط، ١٩٩٦م، ص ٣١ وما بعدها. وِل ديورَانت: قصة الحضارة، ترجمة، زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت، د.ط، ١٩٨٨م، ج٢٦، ص ١٣-٢٧ .

(٢) وِل ديورَانت: قصة الحضارة،ج٢٦، ص١٦، محمد علي البار: المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ج١، ص ٤٤، ص ٧٨؛٧٩، سهيل طقوش: مغول القبيلة الذهبية، ص ١٣٧؛١٣٨.

المبحث الأول: الأحوال السياسية والإدارية والعسكرية لخانية سراي.

يعد النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي هو العصر الذهبي لانتشار الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية في الحوض الجنوبي لنهر الفولجا؛ فهو الوقت الذي توحدت فيه هذه المنطقة تحت سيطرة أشهر الخانيات المغولية في هذه المنطقة، وهي خانية سراي التي وضع أساس بنائها باتو خان(١)، ثم أتم بناءها أخوه بركة خان بعد تحوله ومعظم المغول للدين الإسلامي(٢).

أما عن النظام السياسي لخانية سراي خلال فترة الدراسة ، فكانت جميع المدن الواقعة في الحوض الأوسط والجنوبي للنهر تقع تحت

---

(١) بعد انتصار باتو خان بن جوجي بن جنكيز خان على الروس عام ٦٤٠هـ، قام ببناء مدينة عظيمة بالجانب الشرقي لنهر إتل(الفولجا)، واتخذها مقرًّا له وعاصمة لمملكته أطلق عليها اسم سراي. الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٣٧٦، بارتولد: تاريخ الترك، ص ١٨٨.

(٢) ذكر بعض المؤرخين أن مدينة سراي التي أسسها باتو خان غير مدينة سراي التي أسسها بركة خان، ومنهم بارتولد الذي ذكر: أن مدينة سراي التي أسسها باتو خان تقع بالقرب من مدينة سيلتيرينو الروسية، أما التي أسسها بركة خان فهي مدينة ساراتوف الحالية. تاريخ الترك، ص ١٨٨. وقد اعتمد من ذهب إلي ذلك على ما ذكره ابن بطوطة بقوله: « فسرنا من السّرا عشرة أيام، فوصلنا إلى مدينة سراجوق، وجوق بضم الجيم المعقود وواو وقاف، ومعنى جوق: صغير، فكأنهم قالوا: سرا الصغيرة، وهي على شاطئ نهر كبير.» رحلة ابن بطوطة، ج٣، ص٧. بينما يرى الرمزي أن المدنيتين هما مدينة واحدة وأن باتو خان وضع أساس البناء في حين أتمها أخوه بركة خان. تلفيق الأخبار، ج١، ص ٣٧٦، ص ٤٠٧-٤١٠.

سيطرة سلطان هذه الخانية، فكان حكام المدن المجاورة يدينون بالولاء والسيطرة لحاكمها، حيث ذكر ابن بطوطة في أثناء زياته إلى منطقة القرم – الواقعة في الحوض الأوسط للنهر– أنها كانت تابعة للسلطان محمد أوزبك خان، وأن حاكمها شخص اسمه «تكلتمور» كان من خُدام السلطان ومن التابعين له(١). كما كانت مدينة الحاج طرخان(أستراخان حاليا) من المدن التي تقع تحت سيطرة مدينة سراي في عهد السلطان محمد أوزبك خان(٢).

وقد اتسعت حدود خانية سراي مع بداية القرن الثامن الهجري حتى شملت عديدا من البلاد التي تقع في حوض نهر الفولجا بكامله، وبعض البلاد المجاورة، فضمت القرم والماجر(٣)، وخوارزم(٤)،

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٠.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٤٠.

(٣) هي بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء، مدينة كبيرة من أحسن مدن التّرك على نهر كبير، بها البساتين والفواكه الكثيرة. رحلة ابن بطوطة ، ج ٢، ص ٢٢٤. وبعد تعرض منطقتهم للسيطرة من جانب تيمورلنك؛ فر معظم سكانها للإقامة في دولة المجر الحالية التي نُسبت إليهم. أما المنطقة الأصلية التي ظهروا بها فتقع حاليا في جمهورية تتارستان على ساحل نهر كاما أحد الروافد الشرقية لنهر الفولجا. الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٢٣٦، محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢١، ص١٨٣.

(٤) خُوارِزْم: أوله بين الضمة والفتحة، تقع في بلاد ما وراء النهر. الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٥٤. وتقع حاليا على الحدود بين أوزبكستان وكازاخستان وتركمنستان. عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة، نشر أوراق شرقية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص ٢١٩.

وسُرداق[١]؛ وهذا الاتساع الكبير لخانية سراي وكثرة البلاد التابعة لها مع بداية القرن الثامن الهجري – خاصة في عهد السلطان محمد أوزبك–؛ جعل ابن بطوطة خلال زيارته لهذا السلطان يصفه بأنه أحد ملوك الدنيا السبعة، الذين هم كبراء ملوك الدنيا وعظمائها [٢].

وقد أشار القلقشندي إلى أن حاكم هذه المملكة كان يطلق عليه عدد من الألقاب بجانب الخان – القان– منها: المقام العالي السلطانيّ الكبيريّ، الملكيّ الأكرميّ، والفلانيّ فلان الدّنيا والدين،

مؤيّد الغزاة والمجاهدين، قاتل الكفرة والمشركين، ولـيّ أمير المؤمنين[٣].

ويبدو أن النظام الإداري لهذه الخانية كان يتكون من عددٍ من الوظائف المعاونة للسلطان، مثل الوزير الذي كان له سلطة واسعة، فكان يطلق

(١) تعد هذه المدينة من مدن بلاد القفجاق، وصفها ابن بطوطة بأنها من أعظم المدن ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها، وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمّتهم، وهم أهل صنائع، وأكثر بيوتها من الخشب، وكانت مدينة كبيرة فخرب معظمها؛ بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك. وتقع حاليا بدولة أوكرانيا. رحلة ابن بطوطة بهامشه، ج٢، ص٢٢٨، ص٢٤٤.

(٢) حدد ابن بطوطة ملوك الدنيا السبعة خلال في الفترة التي عاش فيها – كما كان يرى هو– بأنهم: سلطان المغرب، وسلطان مصر والشام، وسلطان العراقيين، والسلطان أوزبك، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين. رحلة ابن بطوطة ، ج٢، ص٢٢٨.

(٣)" أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م" صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د.ت، ج٦، ص ١٢٢.

عليه عدد من الألقاب منها: المجلس العاليّ الأميريّ، الكبيريّ، الذّخريّ، الأوحديّ، الأكمليّ، المتصرّفيّ، العونيّ، الوزيريّ الفلانيّ مجد الإسلام والمسلمين، شرف الأمراء والوزراء في العالمين، جمال المتصرّفين، أوحد الأولياء المقرّبين، ذخر الدولة، مشير الملوك والسلاطين [١].

وكان الوزير يعد صاحب السلطة الأهم- بعد السلطان- في خانية سراي[٢]، فقد أشار عدد من

المؤرخين إلى أن سلاطينها لم يكونوا على علم بكل تفاصيل الأمور، بل كانوا يضعون السياسة العامة للدولة، ويتركون لأصحاب الوظائف الإدارية النظر في تفاصيلها، ومن هؤلاء المؤرخين ابن فضل الله العمري، الذي ذكر أن: السلطان أوزبك غير ملتفت من مملكته إلا إلى جمليات الأمور دون تفاصيل الأحوال، يقنع بما جُمل إليه ولا يلتفت لتفاصيلها[٣].

كما كان للخواتين[٤] نفوذ واسع ومشاركة في الحكم، فكان لهن سلطة إصدار الأوامر نيابة عن السلاطين والأمراء، وقد ذكر القلقشندي: أنه

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦، ص ١٣٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٣.

(٣) "أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري القرشي ، ت:٧٤٩هـ/١٣٤٨م" مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ج ٣، ص ١٤٤؛١٤٥.

(٤) الخواتين أو الخاتونات، جمع خاتون، وهي كلمة فارسية، معناها المرأة صاحبة الكلمة في البيت والتصرف فيه، وقد أطلقت على أميرات البيوت المالكة في العصر الزنكي والأيوبي، كما استخدمت عند مغول القفجاق للدلالة على زوجات ==

وقف على كثير من الكتب الصادرة في هذه البلاد منذ عهد بركة خان ومن بعده من السلاطين تحمل عبارة: « واتفقت آراء الخواتين والأمراء على كذا» أو ما يجري هذا المجري(١).

ومن اللافت للنظر أنه كان يوجد نظام إداري في مملكة سراي خاص بزوجات الحاكم، فكان

يوجد وظيفة القشي: وهو شخص يختص بالإشراف على الخيل التي تجر عربة الخاتون(٢) –زوجة الحاكم–، وأُولُو خاتون وتعني الوزيرة وكانت تجلس عن يمين الخاتون(٣)، وكُجُك خاتون،

وتعني الحاجبة وكانت تجلس عن يسار الخاتون(٤).

==

السلاطين وبناته. رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٤، السيد أدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، دار العرب، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٨م ، ص ٥١، زينب على حسين ، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط١، ١٣١٢ هـ، ص ١٠٣.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ٢٣٠.

(٣) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ٢٣٠.

(٤) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ٢٣٠.

ومن المناصب الإدارية أيضا بها: الكيناز الأعظم والأوسط والأدنـــى[١]، ووظيفة الدفتر دار[٢]، والباصقاق[٣]، والكُتاب. [٤]

ومما هو جدير بالذكر أن سلاطين مملكة سراي كانوا حريصين على أن يسندوا الوظائف الإدارية للعلماء والأدباء والفقهاء؛ وذلك لدرايتهم الواسعة بأمور الشريعة الإسلامية في الإدارة وأساليبها، كما كان الهدف من ذلك أيضا طبع كامل دولتهم بالطابع الإسلامي[٥].

---

(١) الكيناز: هو الحاكم الذي يعينه سلطان خانية سراي حاكما على الممالك الروسية ، التي كانت تابعة لخانيته، وكانت تسمي كنيازيات، وكان للكيناز سلطة واسعة؛ إذ كان عند الروس بمثابة الإمبراطور الروسي. بالغزي "كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البابي الحلبي، ت: ١٣٥١هـ/١٩٣٢م" نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩ هـ، ج٣، ص ١١٧.

(٢) الدفتر دار: هي وظيفة كانت تطلق على المسئول عن حفظ السجلات، أو كبير المحاسبين داخل الدولة، وتقابل هذه الوظيفة وزير المالية في عصرنا الحالي. مصطفى بركات: الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، عام ٢٠٠٠م، ص ١١٩؛١٢٠.

(٣) الباصقاق أو باشقاق: ومعناها حاكم أو صاحب الشرطة. وكانت تطلق عند المغول على المندوبين والولاة الذين كانوا يرسلونهم إلى الأقاليم التي يفتحونها في الغرب وخاصة في روسيا. راجع: موجز دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي وآخرين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط١، ١٤١٨ هـ /١٩٩٨ م، ج٥، ص١٥٣٠.

(٤) الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٥١٦.

(٥) رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول، ص ١٥١.

وكان مقر الحكم في هذه المملكة هو القصر الملكي الذي كان يطلق عليه ألتون طاش[١]، ويعني: رأس الذهب[٢]، وكان قصرًا عظيمًا يتميز بالفخامة في البناء، فكان يعلوه هلال ذهبي وزنه قنطاران، ويحيط بالقصر سور به أبراج بها مساكن للأمراء[٣]، وكان يجلس السلطان على عرش يُطلق عليه اسم التّخْت، وهو عبارة عن كرسي من الخشب المرصع بالجواهر، له قوائم

من الفضة الخالصة، وعليه مفروشات عظيمة مصنوعة من أفخر أنواع الأقمشة [٤].

أما عن المراسم التي تتم عند الدخول على أحد الولاة أو على سلطان خانية سراي، فابن بطوطة قدم وصفًا لهذه المراسم، ففي أثناء مرافقته للأمير تلكتمور حاكم إمارة القرم – التابعة لخانية سراي – في رحلة من مدينته إلى عاصمة الخانية، ذكر أن الأمير كان يرافقه شخص يُطلق عليه (المعرّف)، وكان يجلس بين يدي الأمير، وكانت مهمته أنه يقوم بتنظيم دخول الناس على الأمير، فيبدأ بقاضي القضاة؛ فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعرّف، ويقول بصوت عال: بسم الله، سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكّام، مبيّن الفتاوي والأحكام، بسم الله، أما إذا أتى فقيه معظّم أو

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٦٠، الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٤٠٦.
(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٦٠.
(٣) العمري: مسالك الأبصار، ج ٣، ص ١٩١، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٥ .
(٤) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٨.

رجل مشار إليه قال: بسم الله، سيدنا فلان الدين، بسم الله؛ فيتهيأ من كان حاضرًا لدخول الداخل، ويقوم إليه ويُفسح له في المجلس(١).

أما عن مراسم المجلس السلطاني فذكر ابن بطوطة أيضًا نموذجًا لهذه المراسم بعد وصوله إلى مدينة سراي، فذكر أن من عادة السلطان – محمد أوزبك– أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى: قبة الذهب، مزينة بديعة وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذّهب، وفي وسطها سرير من خشب مكسوّ بصفائح الفضّة المذهّبة، وقوائمه فضّة خالصة، ورؤوسها مرصّعة بالجواهر، ويقعد السلطان على السرير ومعه زوجاته وأبناؤه، ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء، فتنصب لهم كراسيّهم عن اليمين والشمال، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه، ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمّه وإخوته وأقاربه، ويقف في مقابلتهم عند باب القبّة أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال، ثم يدخل النّاس للسلام، الأمثل فالأمثل: ثلاثة ثلاثة، فيسلمون ثم يجلسون على مسافة محددة من السلطان (٢).

كان الجيش في خانية سراي كبير العدد، فكانت عساكره كثيرة يفوتها الحصر(٣)، فالعمري يذكر أن أحد حكام البلاد المجاورة– دون أن يذكر اسمه– أعلن خروجه على طاعة سلطان سراي وحاكم بلاد ما وراء

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢١٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٢٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٣.

النهر[١] وقطع الطريق؛ فاشتركَا معًا في إعداد جيش ضخم، قوامه مائتان وخمسون ألف جندي غير من انضم إليه من المتطوعة[٢]، مع كل فارس في الجيش غلامان وثلاثون رأسًا من الغنم، وخمسة رؤوس من الخيل، وعجلة حربية [٣].

كما بالغ ابن بطوطة في عدد جيش خانية سراي ووصف عدد جيشها بأنه كبير للغاية[٤]، فعند زيارته للمملكة في عهد السلطان أوزبك خان، قدم وصفًا لخروج زوجات الحاكم في أحد الأعياد، وذكر أنه كان يرافق الخواتين موكب به سبعة عشر قائدًا يطلق على كل واحدٍ منهم طومان، مع كل طومان عشرة آلاف جندي، أي: إنه كان يرافق الخواتين مائة وسبعون ألف جندي[٥].

ويرى الباحث أن هذا العدد الذي ذكره ابن بطوطة مبالَغ فيه، فإذا كان هذا العدد من الجنود هو من يرافق الخواتين، فما هو العدد الذي يرافق الحاكم؟ وما هو عدد الجنود الذي يرافق أصحاب المناصب الإدارية الكبرى في الدولة؟ وما هو العدد الذي يقوم بالحرب في الميدان، أو

---

(١) اسم يطلق علي البلاد الواقعة خلف نهر جيحون، كانت تتكون من عدد من المدن الكبيرة مثل: فرغانة، والصغد، وبخارى، وخوارزم، وغيرها. للمزيد راجع: الأصطخري: المسالك والممالك، ص ١٦١، ابن حوقل: صورة الأرض، ج٢، ص٤٥٩ .

(٢) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٨٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٣.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٣٨.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٣٨.

يدافع عن حدود الخانية؟ وخاصة إذا ما قدرنا عدد السكان في ذلك الوقت يظهر مدى المبالغة التي وردت في رواية ابن بطوطة.

وكان للجنود رواتب ثابتة كبيرة تقدر بمائتي دينار في السنة، توزع علي كل الجنود بالتساوي، وليس لجندي أن يأخذ أكثر من الآخر(١). ورغم أن ملابس الجنود في خانية سراي تشبه ملابس الجنود في مصر والشام، فإنهم لم يتخلوا عن الزي التقليدي المغولي، وهو ارتداء عمائم صغيرة ذات شكل دائري فوق رؤوسهم(٢).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٤.

المبحث الثاني: الحياة الاقتصادية لخانية سراي.

أولا: الزراعة والرعي (الثروة الحيوانية):

لم يكن للزراعة دور مهم في اقتصاد خانية سراي والمدن التابعة لها، فلم يكن لهم مبالاة أو اهتمام بالزرع أو بالغرس(١)، ومع ذلك تنوعت المحاصيل الزراعية، فكان يزرع بها عدد من المحاصيل، منها: القمح والشعير اللذان كانا من أقل المحاصيل انتشارا بها(٢)، أما محصول الفول فلا يكاد يزرع في بلادهم(٣). ويُعَد محصول الدّخن، ويشتهر في بلادهم باسم الجاورس(٤) من أهم المحاصيل التي يزرعونها ويعتمدون عليها في طعامهم(٥).

---

(١) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٤٨.

(٢) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٤٥.

(٣) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٤٥.

(٤) الدخن أو الجاورس هو نبات عشبي من النجيليات حبه صغير أملس، كحب السمسم، وهو يشبه الذرة إلى حدٍ كبير، ينبت بريًّا ومزروعًا. له عديد من الفوائد في مجال علاج الأمراض. ابن البيطار" ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد: ت: ٦٤٦هـ/١٢٤٨م" الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م، ج١، ص٢١٣، لسان الدين بن الخطيب: مفردات ابن الخطيب: قاموس للألفاظ الحضارية من القرن الثامن الهجري، تحقيق، وتقديم عبد العلي الودغيري، منشورات عكاظ، السعودية، ط١، عام ١٩٨٨م، ص٥١.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦٧.

ومن الفواكه التي تزرع في بلادهم بكثرة: الأترجّ[١]، والليمون والنّارنج[٢]، والعنب، والرّمّان،

والتّفّاح، والكمّثرى، والمشمش، والجوز، والتين الذي كان يعرف في لغتهم باسم بابيك[٣].

وبجانب الحبوب والفواكه كنت توجد الخضراوات مثل اللّفت، والجزر، والكرنب[٤]، ويعتبر البطيخ أهم الخضروات- رغم ما يشتهر عنه من أنه فاكهة- التي تزرع في خانية سراي وحوض نهر الفولجا؛ فهو يتميز

---

(١) الأترج : شجرة من الموالح يصل ارتفاعها إلى خمسة أمتار تقريبًا، أزهارها بيضاء، لها ثمرة تشبه الليمون لكنها أكبر منه، لها لون أشبه بالبرتقالي. ويستخدم لعلاج بعض الأمراض خاصة أمراض المعدة. ابن سينا "الحسين بن عبد الله بن سينا، ت: ٤٢٨ه/١٠٣٦م" القانون في الطب، تحقيق، محمد أمين الضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠ه/١٩٩٩م، ج١، ص ٣٦٨، جابر سالم القحطاني: موسوعة جابر لطب الأعشاب، مكتبة العبيكان ، ط٢، عام ٢٠٠٩م، ج٢، ص١٣-١٥.

(٢) النارنج: شجرة معمرة دائمة الخضرة يصل ارتفاعها إلى عشرة أمطار غامقة اللون والأزهار، خشنة الملمس طعمها حامض مثل الليمون. لها عديد من الفوائد في مجال علاج الأمراض فهي تقوي العصب والمفاصل ورائحتها تقوي القلب. ابن البيطار: الجامع لمفردات الأغذية، ج٤، ص٤٧٠، جابر القحطاني: موسوعة جابر لطب الأعشاب، ج٢، ص٥٥٨-٥٦٠.

(٣) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٤٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦٧.

بالحلاوة الفائقة، فكانوا يقدّدونه[١] ويجفّفونه؛ فيبقى عندهم من السنة إلى الأخرى، كما كانوا يستخرجون ماءه ليصنعوا منه الحلوى[٢].

أما عن الثروة الحيوانية في خانية سراي والمناطق التي كانت تابعة لها، فكانت تربية الحيوان هي الحرفة الرئيسة لسكان هذه الخانية، وقد عبر عن ذلك العمري بقوله:« وغالب رعاياها أصحاب عمل في الصحراء، أقواتهم من مواشيهم»[٣].

وكانت تربية الحيوانات قائمة على الرعي في المراعي الواسعة التي تنتشر في بلادهم، فلم يكن أحد من مالكي الحيوانات يقوم بإطعامها بالأعلاف كغيرها من البلاد، بل يتركها ترعى في الصحاري الواسعة[٤].

وقد تنوعت الثروة الحيوانية في بلادهم ومنها: الخيل والإبل والأبقار والأغنام[٥]، وكانت الخيول من أكثر الحيوانات انتشارًا، فكان يوجد بخانية سراي عدد كبير جدًّا من الخيول، وكان هذا النوع من الخيول

(١) يقدد: من قدَّد الشيء أي قطعه طولا. ابن منظور" محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، ت:٧١١هـ/١٣١١م" لسان العرب ، دار صادر، بيروت ، ط٣، ١٤١٤هـ، ج٣، ص ٣٣٤.

(٢) العمري: مسالك الأبصار، ج ٣، ص١٩٢، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦٧.

(٣) مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٤٨؛١٤٩.

(٤) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ٢١٨.

(٥) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ٢١٨.

المنتشرة في بلادهم يُعرف في مصر بالأكاديش[١] أثناء العصر المملوكي[٢].

ومما يلفت النظر أن هذه الثرة الحيوانية الضخمة في هذه الخانية لم يكن يحرسها أحد عند قيامها بالرعي في تلك المراعي الواسعة، وذلك بسبب شدة الأحكام التي كانت توقع على السارق، فكانوا إذا وجدوا فرسًا مسروقًا عند أحد كان يكلف السارق برده إلى صاحبه ومعه تسعة أمثاله، فإن لم يقدر على ذلك أُخذ أولاده منه، فأن لم يكن له أولاد ذُبح كما تذبح الشاة[٣].

---

(١) جمع أكديش، وهو نوع من الخيول غير العربية الأصيلة، وكان يُطلق أحياناً على الحصان الخصيّ، كما يُطلق على الحصان الصغير الجيِّد، وكانت من الحيوانات المرغوبة؛ لتميزها بالصبر والسرعة أثناء السير، وكانت تُعقد لها أسواق خاصة في مدينة القاهرة خلال العصر المملوكي. رينهارت بيتر آن دُوزِي: تكملة المعاجم العربية، ترجمه، محمد سليم النعيمي، وجمال خياط، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، ١٩٧٩م، ج٩، ص ٤٨، جمال الغيطاني: ملامح القاهرة في ألف سنة: نهضة مصر للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م، ص٣٤.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ٢٢٣.

(٣) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٢٠. ظل مغول الفولجا يحتفظون بهذه العادة القاسية في معاقبة السارق، التي ورثوها عن المغول في أسيا الوسطي حتى بعد تحولهم للدين الإسلامي، فقد شاهد ماركو بولو تطبيق هذه الأحكام عند زيارته لبلاد التتار خلال رحلته التي قام بها إلى بلادهم. رحلات ماركو بولو: ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، عام ١٩٩٥م، ج١، ص ١٤٦.

أما المسئول عن رعي الحيوانات –خاصة الخيول– المعدة للتجارة فكان يُطلق عليه القشي، ويقدم لنا ابن بطوطة صورة حسنة لطريقة رعي هذا الشخص للخيول التي يمتلكها التجار، فيقول:« يستأجر التّاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم، ويسمّى عندهم القشيّ[1]، ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي.» [2]

ثانيا: الصناعة:

وجد عديد من الصناعات في البلاد التي تقع في حوض نهر الفولجا في أثناء حكم خانية سراي لها، ومن هذه الصناعات:

١–صناعة العجلات(العربات): من خلال ما ذكره ابن بطوطة في أثناء زيارته لبلاد حوض نهر الفولجا خلال القرن الثامن الهجري، نلاحظ أنه يشيد ببراعتهم في صناعة العربات التي تجرها الخيول، ويقدم لنا وصفًا دقيقًا لهذه العربات فيقول:« وهم يسمون العجلة عربة... وهي عجلات تكون للواحدة منهنّ أربع بكرات كبار، ومنها ما يجرّه فَرَسان، ومنها ما يجرّه أكثر من ذلك، ويجرّها أيضا البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفّتها، والذي يخدم العربة يركب أحد الأفراس التي تجرّها ويكون عليه سرج، وفي يده سوط يحرّكها للمشي، وعود كبير يصوّبها

(١) كان يوجد وظيفة بنفس الاسم لأحد الأشخاص المختصين بالإشراف على الخيول الخاصة بالخواتين وزوجات الأمراء. راجع ص١٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص ٢٢٣.

به إذا عاجت(حادت) عن القصد، ويجعل على العربة شبه قبّة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل ...، ويكون فيها طيقان مشبكة، ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه، ويتقلّب فيها كما يحبّ وينام، ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره، والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها ما يشبه البيت.» (١)

٢- صناعة الملابس: كانت هذه الصناعة متطورة إلى حد كبير، ويظهر ذلك من خلال الملابس التي كان يرتديها الملوك والأمراء والنساء، خاصة الخواتين التي كانت ملابسهم تُصنع من الحرير المرصع بالجواهر والمطرز بالذهب وريش الطواويس (٢).

٣- صناعة الأثاث: برع الصناع في خانية سراي في صناعة الأثاث المنزلي، وخاصة المصنوعات الخشبية المرصعة بالجواهر والذهب والفضة، ففي مدينة «أزاق»(٣) **شاهد ابن بطوطة الكرسي الذي كان**

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢١٨. (بتصرف)

(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٣٠. سيأتي الحديث تفصيلًا عن الملابس في مبحث الأوضاع الاجتماعية من هذا البحث بإذن الله.

(٣) تقع في جنوب نهر الفولجا وكانت خاضعة لحكم خانية سراي، وصفها ابن بطوطة(ج٢، ص٢٢١) بقوله:« وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاي وآخره قاف، وهي على ساحل البحر حسنة العمارة، يقصدها الجنويّون وغيرهم بالتّجارات». وتسمي الآن مدينة أزوف نسبة إلى البحر الذي تطل عليه، وتتبع دولة روسيا الاتحادية. بطرس البستاني: دائرة المعارف= قاموس عام لكل فن ومطلب، بيروت، د.ط، عام ١٨٧٦م، ج١، ص ٦٩؛٧٠.

يجلس عليه حاكمها وأبدى إعجابه به، خاصة حجمه الكبير والجواهر التي كانت ترصع بها قوائمه(١).

وعند زيارته لمدينة سراي مقر عاصمة الخانية حضر أحد الاحتفالات الدينية، وأبدى إعجابه بكرسي العرش الذي كان يجلس عليه السلطان محمد أوزبك خان، فكان يجلس على كرسي يطلق عليه التخت، وهو عبارة عن كرسي من الخشب المرصع بالجواهر، وأعواده مكسوة بصفائح مذهبة، وقوائمه من الفضة الخالصة المموّهة، وفوقه فرش فاخر لدرجة كبيرة(٢).

ثالثا: التجارة:

كانت التجارة من الأنشطة الاقتصادية المزدهرة في حوض نهر الفولجا خلال حكم خانية سراي؛ إذ كانت تنتشر في مدينة سراي عديد من الأسواق المحاطة بالأسوار الضخمة للحفاظ على بضائع التجار وأموالهم(٣).

وكانت هذه الأسواق المنتشرة في الخانية والبلاد التابعة لها يوجد بها عدد كبير من البائعين سواء من الرجال أو النساء(٤)، كما كانت مقصدًا

(١) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٢٢.
(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٣٨.
(٣) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص١٥٦، رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٦٠.
(٤) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٣٨، وص ٢٥٩.

للتجار من جميع البلاد؛ فكان يقصدها التجار من مصر والشام والعراق، وبلاد الهند وبلاد الروس وغيرهم(١).

وكانت الأسعار في هذه الأسواق رخيصة للغاية(٢)؛ لذلك كانت حركة التجارة بها رائجة؛ فكان يقصدها الناس ليلًا ونهارًا، خاصة من النساء اللواتي كن يحرصن على الذهاب إلى الأسواق وهن في أبهي صور الحُسن والجمال، ويقدم ابن بطوطة وصفًا شاهده لإحدى النساء في أثناء دخوله إلى أحد الأسواق فيقول:« وأمّا نساء الباعة والسوقة فرأيتهنّ وإحداهنّ تكون في العربة والخيل تجرّها، وبين يديها الثلاث والأربع من الجواري يرفعن أذيالها ... وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من النّاس بالسلع العطريّة، وربّما كان مع المرأة منهن زوجها.» (٣)

وكانت العملة المستخدمة في خانية السراي هي الدرهم والدينار الفضي الذي يساوي ستة دراهم(٤)، ويورد ابن فضل الله العمري تحديدًا دقيقًا لأسعار المحاصيل الزراعية واللحوم والألبان وغيرها من المنتجات في بلاد حوض نهر الفولجا، ويذكر أنها كانت غير مرتفعة الثمن، وأن الأسعار كانت مناسبة لجميع الطبقات والأفراد. (٥)

---

(١) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص١٥٦، رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٦٠.

(٢) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص١٤٥.

(٣) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٢٥. (بتصرف)

(٤) بارتولد: تاريخ الترك، ص ١٩١.

(٥) مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٥٦.

ولم تكن التجارة الخارجية أقل ازدهرًا من الداخلية، فقد قام التجار برحلات تجارية إلى بلاد الهند للتجارة، وخاصة تجارة الخيول، ولكن كان يقابل التجار خلال هذه الرحلة التجارية عديد من المشكلات، أهمها يتمثل في السرقة التي يتعرضون لها من جانب قطاع الطرق المنتشرين على طرق التجارة في هذه البلاد(١).

كما اشتهر تجار هذه البلاد بتجارة الرقيق، خاصة إلى مصر؛ فكان السلطان المملوكي الناصر محمد(٢) يفضل شراء الرقيق من مناطق نهر إتل- الفولجا-، إذ كان يبعث في طلبهم ويبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه، ويدفع فيهم الأموال العظيمة، ثم يفيض على من يشتريهم له بالعطاء الكثير(٣).

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٢٣.

(٢) هو الناصر محمد بن المنصور قلاوون، جلس على العرش ثلاث مرات- بدءً من عام ٦٩٣ه/١٢٩٢م- ثم يُعزل أو يَعزل هو نفسه. حتى توفي ٧٤١هـ / ١٣٤١م عن عمر يناهز الستين سنة، ودفن بجوار أبيه المنصور قلاوون بالقبة المنصورية. راجع: بيبرس الدوادار" الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري ، ت: ٧٢٥ه/ ١٣٢٤م" زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. رينشاردز، نشر الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٤١٩ه /١٩٩٨م، ص ٢٩٨ – ٣٠٥.

(٣) المقريزي" أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين، ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م" المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١٨ه ، ج٣، ص ٣٧٤.

المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية في خانية سراي.

يقصد بالحياة الاجتماعية لأي بلد من البلاد: ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من ناحية الجنس والدين، وعلاقة هذه الطبقات ببعضها البعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل فرد من الحرية، وكذلك وصف الأعياد والاحتفالات، ومظاهر التسلية والترفيه، وملابس هذا المجتمع، والمرأة ودورها ومكانتها في المجتمع الذي تعيش فيه(١).

أما عن أوضاع المجتمع في بلاد حوض نهر الفولجا في أثناء حكم خانية سراي – خلال فترة الدراسة– فقد تأثرت عاداتهم وتقاليدهم بالدين الإسلامي، فنلاحظ أنه منذ انتشار الإسلام في بلادهم بصورة كبيرة(٢)،

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط١٤، ١٩٩٦م ج٢، ص ٣٢٣.

(٢) رغم تأثر الحياة الاجتماعية للمغول في حوض نهر الفولجا بعد دخولهم في الدين الإسلامي بالأوضاع الاجتماعية في الإسلام، إلا أنه كان لا يزال يوجد تأثير لبعض مظاهر الحياة الوثنية في عاداتهم وتقاليدهم طبقا لقانون الياسا (هو قانون وضعه مؤسس دولة المغول جنكيزخان، وكان يتميز بالدموية والعنف والإعدام بصورة بشعة لكل مخالفيه، ومن هذه القوانين: من زنى قُتل، ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن. ومن لاط قتل، ومن تعمّد الكذب أو السحر أو التجسس على أحد، أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل. ومن بال في الماء أو على الرماد قتل. ومن باع بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة. للمزيد عنه راجع: المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٢٥٧–٣٥٩، السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، عام ١٩٨١م، ص ٥٦؛٥٧. ونتيجة لوجود بعض مظاهر هذا القانون في حياتهم الاجتماعية، فقد وصفهم القلقشندي في صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٢، بقوله: « وملوك هذه ==

وهم يحرصون على نقل كل ما تتميز به الحياة الاجتماعية في أعرق بلاد الإسلام إلى بلادهم، لتأكيد الطابع الإسلامي لهم في كل تصرفاتهم، ومظاهر حياتهم العامة والخاصة(١).

وقد تنوعت مظاهر الحياة الاجتماعية في حوض نهر الفولجا خلال فترة الدراسة، على النحو الآتي:

١-عناصر السكان:

تنوعت عناصر السكان التي كانت تعيش في منطقة حوض نهر الفولجا الإسلامي في ظل سيطرة خانية سراي، ومن هذه العناصر: المغول، الذين شكلوا غالبية السكان؛ بما كان لهم من الدور الرئيس في تأسيس الخانيات الإسلامية في هذه المنطقة، كما ضمت أيضا عناصر الجركس(٢)،

==

الطائفة مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور، واقفون مع ياسة جنكزخان التي قرّرها لهم وقوف غيرهم من أتباعه، مع مؤاخذة بعضهم بعضا أشدّ المؤاخذة في الكذب والزّنا ونبذ المواثيق والعهود. وقد جرت عادة ملوكهم أنهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم، أخذوا ماله وباعوا أولاده.» وهذا الوصف الذي نقله القلقشندي عنهم بدأ في التقلص شيئًا فشيئًا حتى انتهى تمامًا بعد تغلغل الدين الإسلامي بين أفراد هذه القبيلة وسلاطين هذه المنطقة.

(١) رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول، ص١٤٦.

(٢) الجركس أو الشركس قبائل كانت تعيش قديمًا في حوض نهر الفولجا، ويعيشون الآن في منطقة القوقاز والأجزاء الغربية من دولة روسيا. كانوا يتميزون بطول القامة، ونحافة الجسم، كما كانوا مقاتلين من طرازٍ فريد. ولقد لعب الشراكسة

==

والآص[١]، والروم، والبلغار والروس. [٢]

٢- الاحتفالات في الأعياد والمناسبات:

كان المغول في خانية سراي والبلاد التابعة لها حريصين على إقامة الاحتفالات في المناسبات الإسلامية- خاصة في عيدي الفطر والأضحى- وقد حضر ابن بطوطة في أثناء زيارته للخانية احتفالهم بعيد الفطر الذي كان موافقًا ليوم الجمعة، وقدم لنا وصفًا متميزًا لهذا الاحتفال، فيذكر أنه: في صباح يوم العيد يركب السلطان في عساكره العظيمة، وتركب كلّ خاتون عربتها ومعها عساكرها، ومعهم بنت السلطان والتاج على رأسها، كما يركب أولاد السلطان كلّ واحد في عسكره. ثم يحضر قاضي القضاة، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ، ويصاحبهم من يحمل الطبول والأعلام، فيصلّى بهم القاضي ، ثم يخطب أحسن خطبة.

وبعد الانتهاء من خطبة العيد يركب السلطان حتى ينتهي إلى برج خشب

==

دورًا كبيرًا في التاريخ الإسلامي عندما كانوا أساس دولة قوية في مصر وهي دولة المماليك الشراكسة. للمزيد راجع: موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج٩، ص ٢٧١١، محمد جمال صادق: موسوعة تاريخ القفقاس والجركس، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ط١، د.ت، ج١، ص ٤٤ وما بعدها.

(١) الآص أو الآس أو شعب اللان :هم شعب هندي أوربي جاء من وسط أسيا واستوطن منطقة نهر الفولجا، ويعيش جزء منهم حاليا في شمال دولة روسيا، وقسم أخر يعيش في دولة جورجيا. راجع: العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص١٤٥؛١٤٦، هامش رقم ٦، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦٢؛٤٦٣.

(٢) العمري: مسالك الأبصار، ج٣، ص ١٤٥، رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٥٩، القلقشندي: صبح الأعشى، ج١، ص ٤٣.

يسمّى عندهم الكشك، فيجلس فيه ومعه خواتينه، وفي برج ثان دونه يجلس وليّ عهده وابنته صاحبة التاج، ثم ينصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه، وتنصب الكراسي للأمراء وأبناء الملوك، ومعهم أصحابهم يلعبون بين أيديهم لمدة قريبة من الساعة.

ثمّ يُؤتى بالهدايا؛ فيعطي السلطان لكل أمير هديته، وعندما يلبسها يأتي إلى أسفل برج السلطان، فيخدم- يقدم التحية للسلطان- وخدمته أن يمسّ الأرض بركبته اليمنى ويمدّ رجله عليها والأخرى قائمة.

ثم يُؤتي بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبّل فيه الأمير ويقوده بنفسه إلى كرسيه، وهنالك يركبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل كلّ أمير منهم، ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه -وليّ العهد-، وعن يساره ابنه الثاني، وبين يديه الخواتين الأربع في عربات مكسوّة بأثواب الحرير المذهّب، والخيل التي تجرّها مجلّلة بالحرير المذهّب، وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار، وأبناء الملوك والوزراء والحجّاب وأرباب الدولة، فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم.

ثم يُؤتي بالطعام على موائد كلّ مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك، ثم يؤتي بعد ذلك بالشراب، فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت ابنته القدح بيدها، وخدمت- قدمت التحية- برجلها، ثم ناولته القدح فيشرب، ثم تأخذ قدحًا آخر فتناوله للخاتون الكبرى، فتشرب منه ثم تناوله لسائر الخواتين، ثم يأخذ وليّ العهد القدح ويخدم – يقدم التحية- ويناوله أباه فيشرب ثم يناول الخواتين ثم أخته ، ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح

ويسقي أخاه، ثم يقوم الأمراء الكبار فيسقي كلّ واحد منهم وليّ العهد، ثم يقوم الأمراء الصغار فيسقون أبناء الملوك. ثم يقومون لأداء صلاة الجمعة، ويعودون مرة أخرى للاحتفال الذي يستمر إلى صلاة العصر، ثم ينصرف الناس أجمعون ويبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته(١).

كما كان لهم احتفال خاص يقام كل يوم جمعة بعد أداء صلاة الجمعة، إذ يجلس السلطان بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب، وهي تقوم على قضبان خشبية مكسوة بصفائح الذّهب، وفي وسطها سرير من خشب مكسوّ بصفائح الفضّة المذهّبة، وقوائمه فضّة خالصة ورؤوسها مرصّعة بالجواهر، ويجلس السلطان على السرير وبجواره زوجاته، ويقف أسفل السرير أبناؤه، ثم يأتي بعد ذلك كبار الأمراء، فتنصب لهم كراسيّهم عن اليمين والشمال، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه، ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمّه وإخوته وأقاربه، ويقف في مقابلتهم عند باب القبّة أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن اليمين والشمال، ثم يدخل النّاس للسلام، الأمثل فالأمثل: ثلاثة ثلاثة، فيسلمون وينصرفون ثم يجلسون على بعد، فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت زوجاته أولًا في موكب مهيب، ثم ينصرف السلطان ثم باقي الحاضرين(٢).

٣- العادات والتقاليد:

تنوعت العادات والتقاليد في منطقة حوض نهر الفولجا خلال حكم

(١) عن الاحتفال بكامل تفاصيله راجع: رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٣٧-٢٤٠.
(٢) عن تفاصيل هذا الاحتفال أيضًا راجع: رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٢٩.

خانية سراي؛ فكان من عاداتهم الاشتداد في معاقبة من يثبت عليه القيام بالسرقة، خاصة من يقوم بسرقة الحيوانات، فإذا اتُّهم شخص بسرقة حيوان ووجد عنده كُلّف أن يردّه إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة أمثاله، فإن لم يقدر على ذلك أُخذ منه أولاده مقابل ذلك، فإن لم يكن له أولاد، ذبح كما تذبح الشاة(١).

ومن العادات في بلادهم أيضًا إكرام الضيف والمبالغة في الترحيب به وإكرامه بشتى الطرق، فابن بطوطة يذكر أنه في كل بلد دخلها يجد الترحيب والإكرام من حاكمها وعامة أهلها(٢)، ومن المبالغة في إكرام الضيف في بلادهم أن يقوم المضيف بمناولة أقداح الطعام والشراب للضيف بنفسه(٣). كما أنهم من باب الإكرام للضيوف في بلادهم يرسلون إليهم أغنامًا وخيلًا فيقومون بذبحها والأكل منها(٤).

ومن العادات والتقاليد في خانية سراي أيضًا أنه إذا تعرضت شاة للمرض وأوشكت على الموت وقام صاحبها بذبحها، فإنه يأكل منها ويُهدي لجيرانه، والعجيب أنهم يعُدُّون هذا الأمر بمثابة القرض الذي يجب الوفاء به، فإذا فعل ذلك أحد الجيران كان الجار مُلزمًا برد ذلك اللحم متى تيسر له ذلك(٥).

ومن عاداتهم الاغتسال في المياه الحارة التي توجد في منطقة تسمي

(١) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٢٠.
(٢) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢١٧، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٣.
(٣) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٣١- ٢٣٣.
(٤) رحلة ابن بطوطة ج٢، ص٢٢٩.
(٥) العمري: مسالك الأبصار، ج ٣، ص ١٤٥.

بش دغ[١]، وهم يرون أن من اغتسل فيها لم تصبه عاهة قط أو لا يصيبه أي مرض.[٢]

٤- الطعام والشراب:

تميز سكان خانية سراي والبلاد التابعة لها في حوض نهر الفولجا بالبراعة في إعداد أنواع متعددة من الأطعمة، التي كانت توضع في أطباق يتم تزيينها؛ مما يدل على الزوق الرفيع في إعداد الطعام وتقديمه، سواء لأهل البيت أو الضيوف القادمين إليهم، وتعد اللحوم هي الوجبة الأساس والمفضلة لسكان هذه الخانية، وخاصة لحوم الخيول والأغنام[٣]، ومن أشهر الأطعمة في بلادهم: الرشتا[٤]، التي كانوا يفضلون تناولها في

---

(١) ذكر ابن بطوطة أن كلمة بش دغ تتكون من مقطعين بش بمعني خمسة، ودغ بمعني الجبل، وذلك لأن هذا الجبل كان يوجد به خمسة عيون كبريتيه.(رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٧). وبش دغ تقع حاليا في جبال القوقاز وتعرف باسم(Reshtau) وهي معروفة بعيونها الكبريتية الحارة. للمزيد راجع: عبد الهادي التازي: مع ابن بطوطة من البحر الأسود إلى نهر جيحون، مقال منشور بمجلة المناهل، المغرب، العدد الثاني عام ١٩٧٥م، ص ٧٢.

(٢) توصل العلم الحديث إلى أهمية المياه الكبريتية الحارة في علاج الأمراض ولا سيما مرض النقرس، وقد ذكر ابن بطوطة أن مرض النقرس من الأمراض المنتشرة بينهم بكثرة، ويدلل على تفشي هذا المرض بينهم أنه عند دخوله على بنت السلطان أوزبك وجدها معتله بهذا المرض، كما أن زوجها الأمير عيسى كان مريضًا بنفس المرض، وكذلك الأمير نَغَطَيْ والد زوجة السلطان كان معتلًا بهذا المرض أيضًا. رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٤.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠.

(٤) الرشتا : هو عبارة عن طعام يصنع من العجين المرقق الذي يطبخ مع اللحم ==

احتفالاتهم(١)، وطعام يصنع من نبات الدُوقي الذي كان يوضع في الماء المغلي ويقطع معه اللحم قطع صغيرة ثم يوضع في أطباق ويصب عليه اللبن الرائب(٢). ومن الأطعمة -أيضًا- البورخاني، وهو عجين يقطعونه قطعا صغيرة ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدر، فإذا طبخت صبّوا عليها اللّبن الرائب(٣).

ومن المشروبات في هذه البلاد: القِمِزّ وهو عبارة عن مشروب معد من ألبان الخيول(٤)، ويعد من المشروبات الرئيسة في جميع موائدهم، فابن بطوطة ذكر أنه في كل بيت دخله من بيوت العامة والخاصة وجدهم يتناولونه ويقدمونه لضيوفهم(٥). وكذلك من المشروبات عندهم البوزة، وهو عبارة عن مشروب يصنع من الخبز الّذي يخمّر ويخلط بالماء

==

والعدس المضاف إليه اللبن، وهو من الأطعمة المفيدة في علاج بعض الأمراض. للمزيد راجع: البغدادي " محمد بن الحسن بن محمد المعروف بالكاتب البغدادي، ت: ٦٣٧هـ/١٢٣٩م" كتاب الطبيخ، نشر، فخر البارودي ، دار الكتاب العربي ، ط١، ١٩٦٤م، ص٣٠، ابن النفيس" على بن أبي الحزم القرشي الدمشقي، ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م" المهذب في الكحل المجرب، تحقيق، محمد طاهر الوفائي- محمد رواس قلعجي، الرباط ، المغرب، ط٢، ١٩٩٤م، ص ١٥٠.

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٠.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٠.

(٤) النويري " شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م" نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، عام ١٤٢٣هـ، ج٢٧، ص ٣٣٩، رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٢٠.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٤٠.

ويترك مدّة يبيت حتى يتحلّل وتظهر له فقّاعات، ثم يوضع في إناء ويشرب(١).

ومن العادات الغريبة في الطعام في بلاد حوض نهر الفولجا أنهم لا يأكلون الحلوى مطلقًا، بل يعدُّون أكلها عيبًا، ويفضل بعضهم القتل على أكل الحلوى، وقد ذكر ابن بطوطة موقفًا حدث له في غاية الغرابة في هذا الشأن فيقول:« ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك في رمضان فأحضرت لحوم الخيل ... وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي، فقدّمتها بين يديه فجعل إصبعه عليها وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك. وأخبرني الأمير تلكتمور أنّ أحد الكبار من مماليك هذا السلطان، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدًا، قال له السلطان يوما: كل الحلواء واعتقكم جميعا فأبى! وقال: لو قتلتني ما أكلتها!!» (٢). وذكر في موضع آخر أنه أتى السلطان أوزبك خان بطبق من الحلواء؛ فجعل السلطان أصبعه عليه وجعله على فمه ولم يزد عن ذلك(٣).

وأيضا فإنهم لا يفضلون أكل الخبز(٤)، ويفضلون أكل اللحوم المختلطة بالعظم(٥)، ويوجد في بلادهم شخص مخصص لتقطيع اللحوم لكل أمير

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٠، أحمد تيمور: معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق، حسين نصّار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢ه/٢٠٠٢م، ج٢، ص٢٦١.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٠. (بتصرف)

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٩.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٩.

يُعرف بالباروجي، فعندما توضع اللحوم على الموائد يأتي الباروجي وعليه ثياب مصنوعة من الحرير وقد ربط عليها فوطة من حرير، وفي حزامه جملة سكاكين في أغمادها؛ فيجلس بين يدي أميره ليقطع له اللحم(١).

٥- المرأة ودورها في خانية:

لقد تمتعت المرأة المغولية في حوض نهر الفولجا خلال حكم خانية سراي بمكانة كبيرة ونفوذ واسع للغاية(٢)، وقد ظهر ذلك في كثير من المصادر التي تحدثت عن وضع المرأة في الخانية، وخاصة عند الرحالة ابن بطوطة الذي زار منطقة حوض نهر الفولجا خلال القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي، وقدم لنا وصفًا دقيقًا وحديثًا شيقًا عن وضع المرأة في خانية سراي، فقد أبدى اندهاشه وتعجبه من تلك المكانة، وذلك التعظيم للمرأة، وقد عبر عن هذا الاندهاش بقوله:«

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٩.

(٢) من الواضح أن المرأة في خانية سراي ظلت تتمتع بمكانتها ونفوذها الذي ورثته عن مكانة المرأة في بلاد المغول؛ فكانت المرأة المغولية تتمتع بمكانة عالية وحرية كبيرة تمثلت في: حقها في التصرف في أملاكها، وحق ورثة زوجها بعد وفاته وغيرها من الحقوق. للمزيد عن وضع المرأة عند المغول راجع: صلاح الدين محمد نوار: المرأة ودورها في المجتمع المغولي طبقا لمصادر المغول وقانون الياسا، نشر منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٩م، ص ٩٠وما بعدها.

ورأيت بهذه البلاد عجبًا من تعظيم النساء عندهم، وهنّ أعلى شأنا من الرجال!» (١).

كما أبدى تعجبه مرة أخرى من تلك المكانة؛ فذكر أن الرجل إذا خرج مع زوجته فإن من يراه يظن أنه أحد خدّامها، حتى إنه لا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم في حين ترتدي هي أفخم الثياب(٢).

وقد بلغ من نفوذ النساء في الخانية أن الخواتين كن يشاركن أزواجهن في الحكم، بل إنه في بعض الأحيان كن يقمن بمهمة إصدار القوانين والأوامر بدلا من السلطان والأمراء(٣).

كما كانت المرأة تتمتع باحترام من جانب زوجها، فكان حريصًا على أن يقدم لها الاحترام اللازم أمام الحاضرين، وقد ذكر ابن بطوطة مواقف متعددة للدلالة على ذلك: فهذا أحد الأمراء ويسمي سلْطية- كما ذكر ابن بطوطة- عندما تدخل عليه زوجته بموكبها يقوم من مكانه ويستقبلها أحسن استقبال، ويسلم عليها ثم يجلسها بجانبه، ثم تأتي جارية معها مشروب «القمز» فتناوله للأمير فيشرب، ثم يناول القدح لزوجته فتشرب، أو يقوم هو بمساعدتها في تناول الشراب(٤).

وهذا السلطان محمد أوزبك خان، ففي الاحتفالات التي كان يحضرها زوجاته كان يحرص على

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٧٣، راجع أيضا ص١٦ من هذا البحث.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

أن يقوم من مجلسه ويستقبل كل واحدة منهن بعد نزولها من موكبها، فيسلم عليها ويأخذ بيدها حتى تصعد إلى المكان المعد لجلوسها، فإذا صعدت وجلست يجلس بعدها، وهذا أمام أعين جميع الحاضرين(١).

أما عن ملابس النساء فكانت تختلف حسب طبقات المجتمع، وإن كن جميعًا يهتممن بملابسهن، ولاسيما الخواتين الخمسة – زوجات السلطان الأربعة وابنته–(٢)، وكانت الخواتين عند خروجهن لحضور الاحتفالات الرسمية يرتدين أفخم الملابس المصنوعة من الذهب، المرصعة بالجواهر، التي تُعرف

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٩.

(٢) قام ابن بطوطة خلال وجوده في خانية سراي بزيارة زوجات السلطان الأربعة كلٌ في مقر إقامتها، وذكر اسم كل واحدة منهن وترتيبهن من حيث: المكانة والحظوة لدي السلطان، وهؤلاء الخواتين حسب الترتيب الذي ذكره ابن بطوطة: طَيْطُغْلِي، وهي الخاتون الكبرى وأم ولدي السلطان – محمود جان، وتين بك– وهي أحظى نساء السلطان، ويبيت عندها معظم الأيام، ويعظمها الناس لتعظيمه لها. أما الثانية، فهي كَبَك خاتون وهي ابنة أحد الأمراء المشهورين الذي ذكره ابن بطوطة باسم الأمير نَغَطَي. أما الثالثة فهي بَيْلُون، وهي ابنة الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس، وقد رافقها ابن بطوطة في رحلة إلى مدينة القسطنطينية لزيارة والدها الإمبراطور. أما الخاتون الرابعة فهي أُرْدُجا وقد وصفها بأنها أشفق الخواتين وأرفقهن. أما الخاتون الخامسة فهي ابنة السلطان التي كانت تسمي إيت كُجُكْ وقد فسر ابن بطوطة هذا الاسم بأنه الكلب الصغير، وعلل ذلك الاسم بأنهم يحبون الفأل الحسن بهذا الاسم. للمزيد عن الخواتين الأربعة ومجلسهن راجع: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣١–٢٣٥.

بالَمُنوت(١)، وعلى رأسها البُغْطاق(٢). كما كان يرافق الخواتين في مواكبهن مجموعة من الجواري الصغار، كان يطلق عليهن اسم البنات، وترتدي كل واحدة منهن ملابس تُعرف باسم النّخّ(٣)، وعلى رأس كلّ واحدة من البنات المرافقات للخاتون الكُلا، وهي تشبه الأُقْرُوف(٤)، وكانت ملابس الخواتين تتميز بطول أذيالها، وفي كل ذيل منها عدد من العروات (فتحات)، وعند كل عروة تقف جارية لرفع أذيال الثوب عن الأرض(٥).

---

(١) كلمة لاتينية معربة، ومعناها المعطف أو العباءة أو الثوب الفضفاض. رجب عبد الجواد إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس «في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث» ، دار الآفاق، مصر، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٤٨٤.

(٢) هو التاج الصغير المكلل بالجواهر وبأعلاه ريش الطواويس. رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠، رجب عبد الجواد إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، ص ٤٧.

(٣) الثوب المصنوع من الحرير المذهب. رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠، رجب عبد الجواد إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، ص ٤٨٨.

(٤) قبعة مستطيلة مخروطية الشكل، مرصَّعة بالجواهر، وفي أعلاها ريش، وهي تشبه تيجان الرأس المستعملة في المغرب، المصنوعة من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، التي يستعملها النساء لتغطية رؤوسهن والتحلي بها. رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠، رجب عبد الجواد إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٣٧.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

كما كانت المرأة في الخانية حريصة على الذهاب إلى الأسواق للشراء في كامل ملابسها التي تتميز بجمالها(١)، فكانت تذهب إلي السوق وهي ترتدي أفخم الملابس، فعلى رأسها يوجد البغطاق، ومعها أربع من الجواري يحملن أذيال ثوبها(٢).

وكان غالبية النساء في الخانية يحرصن على التدين وقراءة القرآن الكريم، والاستماع إليه؛ فكان لكل خاتون قارئ عذب الصوت يقرأ أمامها وتغدق عليه العطايا(٣). كما كن يحرصن على ألا يدخل عليهن في مجلسهن الخاص من الغلمان أو الرجال إلا من كان له زوجة بين الجواري الموجودات معها(٤). كما كن يحرصن- أيضًا- على زيارة العلماء والاستماع إليهم والاستفادة من علمهم(٥)، وأيضًا كن حريصات على الإكثار من الصدقة وتحرِّي أعمال الخير والإحسان إلى الفقراء(٦).

المبحث الرابع : الحياة العلمية والثقافية في خانية سراي.

تعد الحياة العلمية والثقافية من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية التي تميزت بها بلاد حوض نهر الفولجا خلال حكم خانية سراي، فقد كان

---

(١) حسن على العلاق: المرأة في خانية القبيلة الذهبية(مغول القبجاق) من خلال رحلة ابن بطوطة، بحث منشور بمجلة دراسات في التاريخ والآثار، العراق، العدد٧٠، يونيو ٢٠١٩م، ص ١٥٢.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٣٠.

(٥) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

(٦) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٥.

الاهتمام بالثقافة العربية واضحًا حين تحول مغول القبيلة الذهبية إلى الدين الإسلامي منذ إسلام زعيمهم بركة خان، فكانوا حريصين على أن تعم مظاهر اللغة والثقافة العربية جميع شئون حياتهم، فاتخذوا أسماءً عربية منذ عهد السلطان بركة خان، كما أن أحفادهم ظلوا يحملون أسماء عربية، مثل محمد أوزبك خان، وابنه محمود جاني بك وغيرهم.

كما كانوا يحرصون على اتخاذ ألقاب عربية بجانب أسمائهم الأصلية، فبركة خان كان يُلقب بأبي المعالي ناصر الدين(١)، ومحمد أوزبك كان يلقب بالسلطان المعظم(٢)، والمظفر غياث الدين(٣)، وابنه محمود جاني الملقب بأبي المظفر(٤). كما انتشر بين سكانهم بعض الأسماء والألقاب العربية، مثل: شيخ وسيد وحاج(٥).

ولم يقتصر الاهتمام باللغة العربية على مجرد الأسماء فقط، بل كانت تستخدم اللغة العربية في كثير من شئون حياتهم اليومية؛ فابن بطوطة في أثناء زيارته لمدينة أزاق، حضر أحد الاحتفالات الدينية بها، وفي

---

(١) الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٣٩٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٨.

(٣) الرمزي: تلفيق الأخبار ، ج١، ص ٤٨٥.

(٤) الرمزي: تلفيق الأخبار ، ج١، ص ٢٢٥.

(٥) كان سكان خانية سراي يطلقون اسم ولقب سيد على الذين يدعون أنهم من سلالة الخلفتين عثمان بن عفان– رغم أنه لم ينجب من بنتي النبيﷺ– وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما– من زوجتيهما من بنات النبيﷺ، في حين الذين يدعون أنهم من سلالة الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما– كان يطلق عليهم لقب خوجة وتعني الأستاذ أو المعلم. رجب عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، ص ١٤٧.

ختام الحفل قام أحد الخطباء بإلقاء خطبة باللغة العربية دعا فيها لأمير المدينة وللسلطان محمد أوزبك والحاضرين، وكان أحد المترجمين يقوم في أثناء إلقاء الخطبة بالترجمة إلى اللغة التركية لبعض السكان الذين كانوا لا يجيدون العربية(١). ثم أخذ الجميع بعد ذلك يغنون باللغة العربية، ويطلقون على هذا النوع من الغناء اسم القوال(٢)، ثم يعقبون ذلك بالغناء بطريقة تجمع بين الفارسية والتركية ويطلقون عليه اسم الملمّع(٣).

أما إذا انتقلنا للحديث عن الجوانب العلمية في خانية سراي – خلال فترة الدراسة–، فإن سلاطين هذه الخانية منذ تحولهم إلى الدين الإسلامي في عهد السلطان بركة خان– كما سبق الحديث عن ذلك– قد عملوا على الاهتمام بالعلماء واستقدامهم من جميع أنحاء الدولة الإسلامية، وأغدقوا عليهم العطايا والهبات، حتى صارت مدينة سراي في عهد بركة خان مجمع أهل العلم والسعادات(٤). وقد اتبع سلاطين خانية

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٢.

(٢) أُطلقت هذه الكلمة في معاجم اللغة على الرجل المفوه في الكلام، كما أُطلقت على المغني، ويبدو أنها كانت نوعًا من أنواع الشعر الغنائي، رحلة ابن بطوطة بهامشه، ج٢، ص ٢٢٣.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٢. والملمّع عند البديعيين: من الإعجام، وهو شعر يجمع بين العربية والفارسية والتركية بحيث يكون بيت عربي والآخر تركي أو فارسي.(دُوزِي: تكملة المعاجم العربية، ج٩، ص ٢٩٩) وقد ذكر بطرس البستاني العديد من القصائد والأبيات الشعرية لهذا النوع من الشعر. محيط المحيط= قاموس مطول للغة العربية، نشر مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، عام ١٩٨٧م، ص ٤ وما بعدها.

(٤) ابن عربشاه:عجائب المقدور، ص ١١٦، الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص٤٠٥.

سراي سياسية جدهم بركة خان في تقريب العلماء؛ مما جعل ابن عربشاه يثني على اهتمام سلاطين مغول القفجاق وتقريبهم للعلماء، فقال:« ولما تشرف بركة خان بخلعة الإسلام... استدعى العلماء من الأطراف، والمشايخ من الآفاق والأكناف، ليوقفوا الناس على معالم دينهم، ويبصروهم طرائق توحيدهم ويقينهم، وبذل في ذلك الرغبات، وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات، وأقام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله –تعالى– وشرائع الأنبياء، فكان عنده في ذلك الزمان، وعند أوزبك بعده وجاني بك خان .... فصارت سراي بواسطة هؤلاء السادات مجمع العلم ومعدن السعادات، واجتمع فيها من العلماء والفضلاء، والأدباء والظرفاء والنبلاء، ومن كل صاحب فضيلة، وخصلة نبيلة جميلة، في مدة قليلة، ما لم يجتمع في سواها، ولا في جامع مصر ولا في قراها»(١).

ويري الباحث أن ما ذكره ابن عربشاه في آخر قوله– ما لم يجتمع في سواها، ولا في جامع مصر ولا في قراها– إنما يعد مبالغة كبيرة منه في حق مدينة سراي، فرغم أنه كان يوجد في الخانية والبلاد التابعة لها عديد من العلماء، إلا أن مصر في نفس الفترة التي يتحدث عنها ابن عربشاه– القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث والرابع عشر الميلاديين– كانت تمتلئ بالعديد والعديد من العلماء في شتي المجالات العلمية، ولا يخفي على أي قارئ للتاريخ هؤلاء العلماء، الذين كانت تملأ أسماؤهم السمع والبصر في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

(١) عجائب المقدور، ص١١٧.(بتصرف)

ومما يدل على اتباع خلفاء بركة خان سياسته في تقريب العلماء، أنهم كانوا يسندون الوظائف المهمة للعلماء والفقهاء(١)، كما كانوا يذهبون لزيارتهم في أماكن، مثل محمد البطائحي(٢) من بطائح العراق(٣) الذي كان له زاوية(٤) خاصة به في مدينة الماجر(٥)، فكان يذهب إليه السلطان أوزبك خان والخواتين-زوجاته- لزيارته، والاستماع إليه، وكانوا يجزلون له العطاء والإحسان(٦).

وهذا الشيخ نعمان الدّين الخوارزمي(٧)، يذهب إليه السلطان في كلّ جمعة، ويجلس بين يديه ويتحدث معه بألطف العبارات،

---

(١) رجب عبد الحليم : انتشار الإسلام بين المغول، ص ١٥١.

(٢) محمد البطائحي كان رئيسًا للطريقة الرفاعية (إحدى الطرق الصوفية)، توفي عام ٧١٦هـ. البرزالي" القاسم بن محمد بن يوسف بن زكي الدين محمد الإشبيلي، ت: ٧٣٩هـ/١٣٣٨م" المقتفي على تاريخ الروضتين= تاريخ البرزالي، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، عام ٢٠٠٦م، ج٢، ق٣، ص٢٣٧، رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٢٤.

(٣) البطائح مفردها البطيحة، وسميت بذلك لان المياه تبطحت فيها، أي سالت واتسعت في الأرض، وهو مكان مشهور بالعراق بين واسط والبصرة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٤٥٠ .

(٤) عبارة عن مسجد صغير لا مئذنة له ولا منبر، كان يوجد به ضريح للمنشئ أو أحد الأولياء أو الصالحين، وكانت تقام فيه الصلوات الخمس اليومية، ولا تقام فيه الجمعة أو العيدين. للمزيد راجع، عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٢٨.

(٥) سبق التعريف بها ص١٤ .

(٦) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٤.

(٧) النعمان بن دولات شاه بن علي الخوارزمي. كان فاضلًا لطيفًا طاف وحج سنة ==

ويتواضع له[١]. وهذا أحد شيوخ مدينة القرم وكان يُعرف بزاده الخراساني[٢] يأتيه حاكم المدينة الأمير تكلتمور والخطباء والقضاة وجميع أهلها للسلام عليه والأخذ عنه[٣].

ومن الأدلة أيضا على الاهتمام بالعلماء ما ذكره ابن بطوطة الذي رافق الأمير تكلتمور أمير القرم في زيارته لمدينة أزاق التابعة لإمارته، وخلال حفل استقبال أقيم له، يقوم الأمير بتقديم ابن بطوطة ومعه شيخ يدعي مظفر الدين أحد علماء الشافعية اعترافًا منه بمكانتهما العلمية، كما كان يجلس طلبة العلم الحاضرون لهذا الاحتفال على مقاعد فاخرة، والأعجب من ذلك كله أن ابن الأمير تكلتمور وأخيه وأمير مدينة أزاق وأولاده كانوا يقفون فيها خدمة العلماء وطلبة العلم![٤].

كما تعددت المنشآت التعليمية في خانية سراي والمدن التابعة لها، فقد انتشرت بها المساجد الجامعة، ففي مدينة سراي وحدها كان يوجد ثلاثة عشر مسجدًا جامعًا تقام فيه صلاة الجمعة، خلا عدد كبير من المساجد

==

٧١٨ه، وأقام بمصر مدة، ثم رجع إلى بلاده، وأقام بها إلى أن توفي عام ٧٢٨ه. البرزالي: المقتفي على تاريخ الروضتين، ج٢، ق٣، ص٣٣٢، ابن حجر: الدرر الكامنة ،ج٦، ص ١٦١؛١٦٢.

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٤.

(٢) لم أعثر على ترجمة له فيما تيسر لي من مصادر.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٦٠.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٢.

الصغيرة[١] التي كان يخصص كل واحدٍ منها لتدريس أحد المذاهب الفقهية الأربعة[٢].

ومن مراكز نشر العلم -أيضًا- بحوض نهر الفولجا: المدارس، مثل: المدرسة التي أنشأها السلطان أوزبك خان في مدينة سراي[٣]. وكذلك الزوايا التي كانت تقوم بمهمة نشر العلم بجانب دورها الديني، ومن أمثلتها: زاوية الشيخ زادة الخراساني، وزاوية محمد البطائحي، وزاوية الشيخ نعمان الدين الخوارزمي[٤].

ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير من جانب الحكام والأمراء بالحركة العلمية؛ فقد وفد على منطقة حوض نهر الفولجا في عهد حكام سراي- خلال فترة الدراسة- عديد من العلماء الذين كان لهم دور في نشر الثقافة العربية والإسلامية، مثل: الشيخ سعد الدين التفتازاني[٥]، والشيخ قطب

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٥٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٥٩، رجب عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، ص ١٥٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٥٥.

(٤) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٦٠.

(٥) محمود بن عمر بن عبد الله العجمي، ولد سنة ٧١٢، كان له تقدم في عديد من الفنون، واشتهر ذكره وذاع صيته وانتفع الناس بتصانيفه، ومن مصنفاته: شرح العضد وشرح التلخيص ، وشرح على المفتاح وشرح على التنقيح، وحاشية على الكشاف وغير ذلك، مات بسمرقند عام٧٩١ه. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق، حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر، ط١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ج١، ص ٣٨٩،٣٩٠، الداودي" محمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداودي، ت: ٩٤٥ه/١٥٣٨م" طبقات المفسرين، تحقيق، ==

الدين الرازي [١] والفقيه علاء الدين الأصي، والفقيه صدر الدين سليمان اللكزي[٢]، والفقيه شمس الدين السايلي الحنفي، والفقيه شمس الدين المصري المالكي[٣]، والفقيه نجم الدين ابن الشحام الشافعي [٤].

==

مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣ه /١٩٨٣م، ج٢، ص ٣١٩.

(١) هو الإمام قطب الدين الرازي. له مؤلفات كثيرة منها: شرح الحاوي، وشرح المطالع وشرح الإشارات، وحاشية على الكشاف. توفي عام ٧٦٦ه. ابن الغزي" شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي، ت: ١١٦٧ه/١٦٥٦م " ديوان الإسلام، تحقيق، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٤، ص١٥،الرمزي: تلفيق الأخبار ، ج١، ص٧٢٠.

(٢) أحد الفقهاء الشافعية المشهورين في خانية سراي، واللَكْزي بفتح اللام وسكون الكاف وفي آخرها الزاي، هذه النسبة إلى لكز، وهي منطقة تقع بالقرب من بحر الخزر(قزوين). راجع: السمعاني "عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، ت: ٥٦٢ه /١١٦٦م" الأنساب ، تحقيق، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٩٦٢م، ج ١١، ص ٢٢٠، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٢٢.

(٣) ذكر ابن بطوطة أنه قابل هؤلاء العلماء في أثناء زياراته لخانية سراي ومنطقة حوض نهر الفولجا، ولم أعثر فيما تيسر لي من مصادر على ترجمة لهؤلاء الفقهاء الذين ذكرهم ابن بطوطة.

(٤) هو نجم الدين بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن نصر المعروف بابن الشحام، بالموصل بالعراق عام ٦٥٢ه، ثم سافر وأقام في خانية سراي في عهد السلطان أوزبك خان مدة، ومنها انتقل للإقامة بدمشق حتى توفي بها عام ص٧٣٠ه. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٨، ص ١٩٧، ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص ١٥٠.

كما وفد علي منطقة حوض نهر الفولجا في عهد خانية سراي الرحالة الشهير ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، أبو عبد الله، ت: ٧٧٩هـ /١٣٧٧م) الذي أقام مدة في هذه المنطقة شاهد فيها كثيرا من مظاهر الحضارة الإسلامية المتطورة في هذه البلاد التي كان لا يزال الإسلام يخطو فيها خطواته الأولى.

المبحث الخامس: العلاقات بين خانية سراي ودولة المماليك في مصر والشام.

تعود العلاقة القوية بين دولة المماليك التي قامت في مصر (٦٤٨-٩٢٣ه/١٢٥٠-١٥١٧م) وخانية سراي لعهد السلطان بركة خان، فبعد إسلامه بدأت المراسلات والبعثات بينه وبين الظاهر بيبرس[١]، كان من أهمهما تلك البعثة التي أرسلها السلطان بركة خان تحمل رسالة إلى الظاهر عام ٦٦١ه/ ١٢٦٢م يخبره بأنه اعتنق وكثير من قومه الإسلام ، وأنه عزم علي محاربة هولاكو؛ عقابا له على ما ارتكبه من حماقات ضد المسلمين، وقد جاء في هذه الرسالة: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ... فليعلم السلطان أنني حاربت هولاكو الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا، وتعصبًا لدين الإسلام، لأنه باغي، والباغي كافر بالله ورسوله[٢].

---

(١) هو الملك الظاهر ، أبو الفتوح ركن الدنيا والدين ، بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي التركي، ولد بصحراء القفجاق جنوب نهر الفولجا في حدود عام ٦٢٦ه. وقع في الأسر وابتاعه أحد النخاسين، وجاء به إلى مصر فاشتراه أحد الأمراء، ثم أخذه الصالح نجم الدين أيوب ، وظل يترقى في المناصب حتى تولى حكم مصر عام ٦٥٨ه عقب معركة عين جالوت، وظل حاكم عليها حتى توفي عام ٦٧٦ه. للمزيد راجع: الصفدي: الوافي بالوفيات: ج١٠، ص٢٠٧، ابن تغري بردي "يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، ت: ٨٧٤ه/١٤٦٩م" المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، د.ت، ج٣، ص٤٤٨.

(٢) العيني" محمود بن أحمد بن موسى الحنفى الشهير ببدر الدين العينى ، ت: ٨٥٥هـ/١٤٥١م" عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، محمد محمد أمين، الهيئة ==

وعندما وصلت هذه الرسالة قرأها السلطان، ثم رد عليه برسالة طويلة جمع فيها بين الترغيب والترهيب، والاستمالة والإغراء، والتعاظم عليه وإظهار الميل إليه، ووصف كثرة جند مصر وزيادتها عن المعتاد، وأنها كلها موفقة لنصرة الإسلام(١). كما أمر بالدعاء لبركة خان بعد الدعاء له وللخليفة العباسي على منابر مكة والمدينة وبيت المقدس والقاهرة(٢). كما اهتم بإكرام المبعوثين من قبل سلطان سراي ، وأعادهم إلى بلادهم محملين بالهدايا الثمينة(٣). وقد استمرت المراسلات بين الظاهر وبركة خان حتى بلغت -حين توفي بركة خان- أحد عشر رسالة(٤).

ورغم وفاة الظاهر بيبرس وبركة خان، إلا أن خلفائهما قد حافظوا على العلاقات الودية بين حكام خانية سراي ودولة المماليك، فقد ظلت البعثات والمراسلات قائمة بين حكام الدولتين، خاصة في عهد السلطان

==

المصرية العامة للكتاب – مركز تحقيق التراث، ط١، عام ١٤٠٧ه/١٩٨٧م، ج١، ص ٣٦١.

(١) ابن عبد الظاهر" محيي الدين بن عبد الظاهر، ت:٦٩٢ه/١٢٩٢م" الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق، عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، عام ١٩٧٦م، ص ١٧٢.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص ١٧٢.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص ١٧٢.

(٤)عبد الله راجح: العلاقات بين دولة المماليك في مصر والشام ودولة مغول القبيلة الذهبية في القفجاق في عهد قلاوون وبنيه(٦٧٨-٧٨٤ه)، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، العدد السادس والعشرون ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، مجلد٣، ص ٢٦٧٤.

قلاوون[١](٦٧٨-٦٨٩ه/١٢٧٩-١٢٩٠م) وابنه الأشرف خليل بن قلاوون[٢] (٦٨٩-٦٩٣ه/١٢٩٠-١٢٩٣م) وابنه الناصر محمد، وحكام سراي في عهد منكوتمر[٣]،(٦٦٥-٦٧٩ه/١٢٥٧-١٢٨٠م)، وتدان مكنو[٤] (٦٧٩-٦٨٦ه/١٢٥٧-١٢٨٧م)،

---

(١) قلاوون بن عبد الله التركي الصالحي النجمي الألفي(لقب كان يطلق علي المملوك الذي يُشتري بألف دينار) كان من أكابر الأمراء زمن الظاهر بيبرس ، تولي السلطنة عام ٦٧٨ه، وتوفي عام ٦٨٩ه. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٠٠، اليافعي "أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد، ت: ٧٦٨ه /١٣٦٦م" مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، وضع حواشيه: خليل المنصور ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٥٧.

(٢) خليل بن المنصور قلاوون، تولى الحكم عام ٦٨٩ه بعد موت والده، حارب الصليبيين واسترد منهم مدينة عكا أخر معاقلهم في بلاد الشام. قتل على يد أحد مماليكه عام٦٩٣ه. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣، ٢٤٩-٢٥١، المقريزي: المواعظ الاعتبار، ج٢، ص٣٤٣.

(٣) منكوتمر(منكوتيمور) بن طوغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكزخان، تولى الحكم بعد وفاة عمه بركة خان بترشيح من الخان الأعظم للمغول ، توفي سنة ٦٧٩ه بسبب دمل انتشر في حلقه فمات. الذهبي : تاريخ الإسلام، ج١٥، ص ١١١، الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٤٤٤-٤٦٠.

(٤) تدان مكنو بن طوغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكزخان، تولي الحكم بعد وفاة أخيه منكوتمر، تنازل عن الحكم طوعية لابن أخيه تلابغا، وانقطع للزهد والعبادة. ، المقريزي" أحمد بن علي بن عبد القادر، تقي الدين، ت: ٨٤٥هـ/١٤٤١م" السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، ج٢، ص٢٠٠، العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٣٦١.

وتلابغـــــا[1] (٦٨٦-٦٩٠هـ/١٢٥٧-١٢٩١م) وطقطـــــاي (٦٩٠-٧١٢هـ/١٢٩١-١٣١٣م)، ثم عهد السلطان محمد أوزبك خـــان، والتـــي سأتناولها تفصيلًا؛ إذ إنها الفترة التي يتناولها هذا البحث.

بعد تولي السلطان محمد أزبك حكم خانية سراي عام ٧١٢هـ/١٣١٣م خلفا لطقطاي حرص على أن يحذو حذو أسلافه في استمرار أواصر العلاقات القوية مع دولة المماليك القائمة على الصفاء والمودة – في غالب الأحيان- ، فبعد توليه الحكم أرسل إلى الناصر محمد سفارة كبيرة وصلت إلى مصر في ذي الحجة عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م؛ تحمل معها رسالة يخبره فيها باعتناقه الإسلام، ويؤكد فيها حرصه على استمرار العلاقات الودية بين خانيته وسلاطين المماليك[2].

ومن جانبه رحب السلطان الناصر محمد بهذه السفارة وأكرمهم وبالغ في الترحيب والحفاوة بهم، وبعد قضائهم مدة شهر في مصر، وأثناء تجهزيهم للعودة إلي بلادهم في المحرم عام ٧١٤هـ/١٣١٤م، أمر السلطان الناصر محمد بتجهيز هدية ثمينة يحملونها معهم إلى خانهم،

(١) تلابغا بن منكوتمر بن طغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكزخان، تولى الحكم بعد اعتزال عمه تدان مكنو، قُتل خنقا بمؤامرة دُبرت ضده من جانب نوغاي أحد أمراء بيت جنكيز خان، الذي قبض عليه وسلمه لطقطاي بن منكوتمر الذي قتله؛ بحجة أنه اغتصب منه ملك أبيه عام ٦٩٠هـ. المقريزي: السلوك، ج٢، ص٢٣١، ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص٨٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب ج٣٢، ص ٢١١.

وأرسل معهم رسولين، فوصلا إلي سراي اجتمعا بالسلطان أوزبك وأوصلاه الهدية [١].

وفي عام ٧١٥هـ/١٣١٥م أرسل السلطان محمد أوزبك خان مرة أخرى سفارة كبيرة بلغ عددها مائة وسبعين نفرًا معهم التحف والهدايا [٢]، وبعد عام من الترحيب والحفاوة والإكرام قضتها بعثة سراي في مصر، وعندما عزم المبعوثون على العودة إلى بلادهم عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م أمر السلطان الناصر محمد بتجهيز هدية ثمينة جدا[٣]، وأرسل معهم الأمير علاء الدين أيدغدي الخوارزمي[٤].

كما أرسل معهم بطريرك(بطريق) [٥]الحضرة الملكية[١]. وبعد وصول هذه السفارة المصرية إلي خانية سراي أحسن السلطان أوزبك

---

(١) النويري: نهاية الأرب ج٣٢، ص٢٠٩.

(٢) الرمزي: تلقيح الآثار، ج١، ص ٤٩٧.

(٣)عن تفاصيل هذه الهدية ، راجع، المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٧.

(٤) علاء الدين أيدغدي الخوارزمي ترقى في المناصب حتى أصبح حاجبًا، كان شيخًا طوالًا يستحضر أشياء حسنة من التواريخ، توفي في شعبان سنة ٧٢٩هـ. راجع: المقريزي: المقفى الكبير، تحقيق، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ج٢، ص ٣٤٣، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص٥٠٦.

(٥)البطريق (البطريك) هو الرئيس الأعلى للأساقفة، وكان للبطارقة مكانة كبيرة في المكان الذي كانوا يقيمون فيه؛ إذ كانوا يمتلكون القصور والبيوت الفخمة في الأماكن التي يقيمون فيها، راجع: التطيلي " الرابي بنيامين بن الرابي يونة الإسباني اليهودي، ت، ٥٦٩هـ/١١٧٣م " رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزار حداد، دراسة وتقديم: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ==

استقبالهم، وأكرم وفادتهم وظلت هناك ما يقارب العام حتى عادت مرة أخرى إلى مصر محملة بالهدايا والتحف الثمينة عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م(٢).

ورغم أن المراسلات الودية والعلاقات السياسية ظلت قائمة بين السلطان الناصر محمد والخان محمد أوزبك في معظم فترة حكم كلاً منهما، إلا أن هذه العلاقات السياسية تطورت إلى علاقة المصاهرة والزواج، فقد تزوج السلطان المملوكي من إحدى أميرات البيت الحاكم في خانية سراي، ومع أن المصادر المهتمة بالتأريخ للدولة المملوكية قد أفاضت الحديث عن هذا الزواج إطنابًا واختصارًا، وتصريحًا وتلميحًا، إلا أن المتتبع لهذه المصادر يجد بينها اختلافًا كبيرًا في: من الذي بدأ بطلب الزواج؟ وما موقف الطرفين من هذا الطلب؟ ومتي تم طلب الخطبة؟ ومتي تم هذا الزواج؟.

ولكن ما عليه الغالبية منهم أن فكرة الزواج تمت خلال البعثة التي أرسلها الناصر محمد إلى سراي عام ٧١٦هـ/١٣١٦م، فعند اجتماع الأمير علاء الدين أيدغدي بنائب السلطان أوزبك على القرم الأمير تكلتمور، عرض على الوفد المصري زيادة قوة العلاقة بمصاهرة بين البيت الحاكم في مصر وسراي؛ بأن يتزوج السلطان المصري من إحدى

==

ط١، ٢٠٠٢م، ص ٣١٩، ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ٢٠١٠م، ص٩٢؛٩٣.

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٢٧، المقريزي : السلوك ج٢، ص٧١٥ .

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٢٧، الرمزي: تلفيق الأخبار، ج١، ص ٤٩٨؛٤٩٩ .

أميرات البيت المغولي[١]، وعندما عرضت الفكرة من جانب تكلتمور على الخان لقت منه استحسانًا كبيرًا، وعندما عاد الوفد السلطاني إلى مصر وعرض فكرة النسب والمصاهرة على الناصر وجدت منه استحسانًا وترحيبًا أيضًا[٢].

ورغم إبداء الخان قبولًا لفكرة هذا الزواج إلا أنه وجد استنكارًا ومعارضة قوية من كبار الأمراء في البيت الحاكم، فعندما عرض عليهم الفكرة رفضوها قائلين : هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جنكزخان وإلى هذا الوقت. وفى مقابله ماذا تجهز ابنة ملك من الذرية الجنكزخانية إلى الديار المصرية؟[٣].

ولكن الخان محمد أوزبك كان يرى في هذا الزواج تقوية للعلاقة مع دولة المماليك القوية التي سوف تكون سندًا له ضد أعدائه المتربصين به؛ لذلك حاول إقناع الأمراء في خانيته بهذه الفكرة، فأعاد عليهم العرض مرة أخرى خوفًا من أن تضيع على الخانية النتائج العظيمة التي سوف تعود عليه بعد إتمام هذا الزواج، وبعد محاولات من السلطان أوزبك مع أمراء البيت المغولي أجابوه وسهلوا له ما أراد، وقالوا: ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك.، وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته

(١) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٤٣١ .

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص٤٣١ .

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٢٧.

إلى ما طلب، إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين، سنة كلام، وسنة خطبة، وسنة مهاداة، وسنة زواج(١).

وبعد أخذٍ وردٍّ من الطرفين في شأن المهر والخطبة ورسوم إتمام حفل الزواج، وافق الطرفان على إتمام العقد ، وقد اختار السلطان أوزبك لهذا الزواج الأميرة طلنباي(٢)، التي وصلت إلى مصر في موكب مهيب به عدد كبير من الأمراء ، معهم مائة وخمسين رجلا وستين جارية، وتم الزواج في عام ٧٢٠ه/١٣٢٠م(٣).

ورغم هذا الزواج والعلاقات الودية بين السلطان أوزبك خان والناصر محمد إلا أنها شهدت فتورًا في بعض الأوقات، وذلك لعددٍ من الأسباب أذكر منها:

- طلاق الناصر محمد للأميرة المغولية(٤)، وخاصة أنها لم تكن بالجمال الذي كان يتوقعه السلطان المملوكي من نساء الأتراك اللائي عُرفن بالجمال الفائق.

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٢٧.

(٢) هي طلباي، وقيل: طولونية، وقيل: دلنبيه بنت طغاي بن هند بن باطو بن دوشي خان بن جنكيزخان، تزوجت الناصر محمد ثم طلقها، توفيت عام ٧٤١ه. المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٢٥، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص ٣٩٢.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٢٥، الدواداري" أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، ت: ٧٣٦ه/١٣٣٥م" كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق، هانس روبرت رويمر، نشر ، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ط١، د.ت، ج٩، ص ٣٠١؛٣٠٢، المقريزي: السلوك، ج٣، ص٢٥.

(٤) ذكر المقريزي أن الناصر محمد طلاقها عام ٧٢٨ه، ثم زوجها من الأمير سيف ==

- التقارب الذي حدث بين دولة المماليك ومغول فارس، التي انتهت بتوقيع معاهدة صداقة بين الطرفين؛ فلم يعد في وسع الناصر محمد الانحياز إلى مغول القفجاق في صراعهم مع أبناء عمومتهم من مغول فارس، ولا إمدادهم بالمساعدات العسكرية التي كانت أساس للعلاقات الودية مع حكام خانية سراي(١).

==

الدين منكلي، ثم من الأمير سيف الدين بكتمر، ثم من أمير ثالث عام ٧٣٥ه. السلوك: ج٣، ص١١٠ .

(١) عبد الله راجح: العلاقات بين المماليك ودولة مغول القبلية الذهبية، مجلد٣، ص ٢٧٣٩-٢٧٤٣.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، النبي الأمي العربي الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فبعد الانتهاء ــ بعون من الله وفضله ــ من هذا البحث الذي جاء تحت عنوان: «خانية سراي الإسلامية حاضرة مغول القبيلة الذهبية جنوب نهر الفولجا(٧١٢-٧٥٨ه/١٣١٣-١٣٥٦م) دراسة الحضارية». توصلت الدراسة إلى عدة نتائج يمكن إجمالها في الآتي:

-إن الإسلام انتشر منذ فترة مبكرة في حوض نهر الفولجا على يد التجارة والدعاة المسلمين، الذين كان لهم الفضل الأول في نشر الإسلام في هذه البلاد البعيدة عن مناطق نفوذ الدولة الإسلامية.

- ظهر من خلال هذه الدراسة أن مغول القبيلة الذهبية منذ تحولهم للدين الإسلامي عملوا على نشر الدين في المناطق التي لم يدخلها الإسلام، والواقعة في حوض نهر الفولجا، حتى أصبح النهر من منبعه حتى مصبه نهرًا إسلاميًّا خالصًا.

- أظهرت الدراسة أن الأوضاع الاقتصادية لبلاد حوض نهر الفولجا كانت متطورة، خاصة التجارة التي كانت همزة الوصل بينهم وبين المراكز الحضارية الكبرى في العالم الإسلامي، مثل مصر والعراق والشام.

- أوضحت الدراسة أن سكان حوض نهر الفولجا قد تأثرت عاداتهم وتقاليدهم بالعادات والتقاليد الإسلامية، فكان سلاطينهم يحرصون على

نقل كل ما تتميز به الحياة الاجتماعية في أعرق البلاد الإسلامية إلى بلادهم؛ لتأكيد الطابع الإسلامي لهم في كل تصرفاتهم، ومظاهر حياتهم العامة والخاصة.

– ظهر من خلال هذه الدراسة أن المرأة المغولية في البلاد الإسلامية في حوض نهر الفولجا قد تمتعت بمكانة كبيرة ونفوذ واسع للغاية، وقد ظهر ذلك من خلال مشاركتها في الحكم، بل في بعض الأحيان كان الخواتين يقمن بمهمة إصدار القوانين والأوامر بدلا من السلطان والأمراء. كما أن المرأة كانت حريصة –في الغالب– على الالتزام بالعادات والتقاليد الإسلامية رغم حداثة عهد مغول القبيلة الذهبية بالدين الإسلامي.

– أبانت الدراسة أن الاهتمام بالثقافة العربية كان واضحًا منذ تحول مغول القبيلة الذهبية إلى الدين الإسلامي، فقد حرصوا على أن تعم مظاهر اللغة العربية جميع شئون حياتهم، فكانت أسماؤهم وألقابهم، وأشعارهم وأغانيهم ، واحتفالاتهم تتم في جانب كبير منها باللغة العربية.

– أظهرت الدراسة أن سلاطين وأمراء الخانية – خلال فترة الدراسة– قد عملوا على الاهتمام بالعلماء واستقدامهم من جميع أنحاء الدولة الإسلامية، وأغدقوا عليهم العطايا والهبات؛ حتى صارت مدينة سراي مركز الحكم في هذه المنطقة مجمع أهل العلم والسعادات من كبار العلماء.

– أثبتت الدارسة أن مغول خانية سراي كانت لهم علاقات خارجية متعددة مع عالمهم الخارجي، خاصة دولة المماليك في مصر والشام التي قامت على التحالف والمودة والتواصل الحضاري.

الملاحق

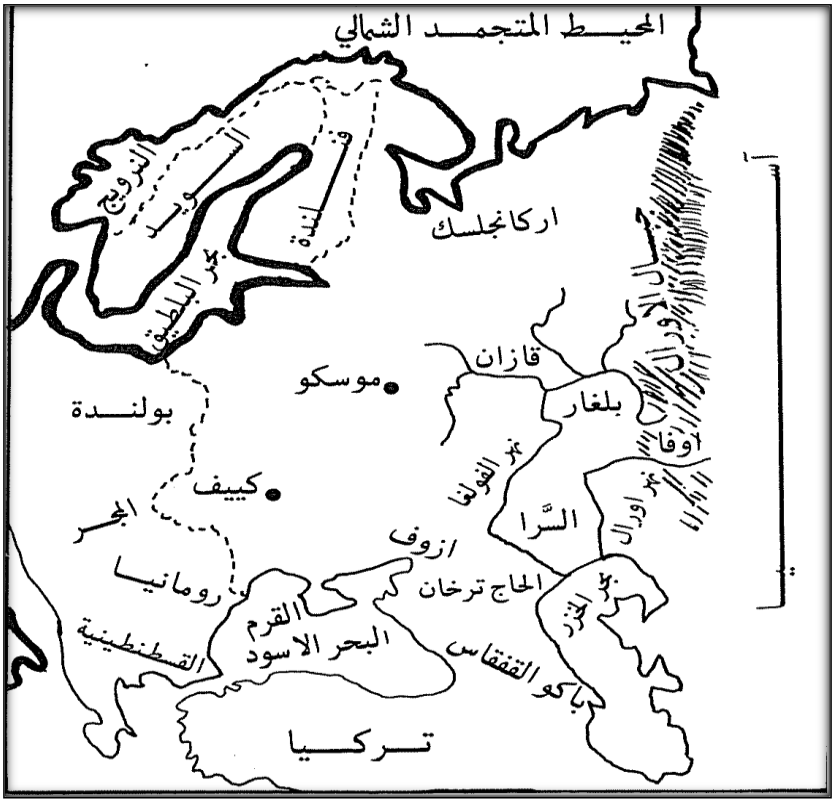

خريطة لحوض نهر الفولجا خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[1]

(١) محمد على البار: المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ج١، ص ٧٩.

قائمة المصادر والمراجع(١)

الأصطخري "أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ، المعروف بالكرخي، ت، ٣٤٦هـ/٩٥٧م"

المسالك والممالك ، دار صادر بيروت د.ط ، ٢٠٠٤م.

الأنصاري " شمس الدين أبي عبد الله محمد الدمشقي، أبوطالب، ت، ٧٢٦هـ /١٣٢٥م"

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، ط١، ١٨٦٥م.

البرزالي" القاسم بن محمد بن يوسف بن زكي الدين محمد الإشبيلي، ت: ٧٣٩ه/١٣٣٨م"

المقتفي على تاريخ الروضتين= تاريخ البرزالي، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، عام ٢٠٠٦م

ابن بطوطة" محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، أبو عبد الله، ت: ٧٧٩هـ /١٣٧٧م"

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه ووضع فهارسه، عبد الهادي التازي ، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ، ط١، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م.

(١) تم ترتيب هذه القائمة هجائيا بعد استبعاد ابن ـــ أبو ـــ ال من أسماء وألقاب المؤلفين.

البغدادي " محمد بن الحسن بن محمد المعروف بالكاتب البغدادي، ت: ٥٦٣٧هـ/١٢٣٩م"

كتاب الطبيخ، نشر، فخر البارودي ، دار الكتاب العربي ، ط١، ١٩٦٤م.

البناكتي " أبو سليمان داود بن أبي الفضل محمد البناكتي ، ت: ٧٣٠هـ/١٣٢٩م"

روضة أولي الألباب في معرفة التواريخ والأنساب، تاريخ البناكتي = تعريب، محمد عبد الكريم علي، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٧م.

ابن البيطار" ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد: ت: ٥٦٤٦هـ/١٢٤٨م"

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤٢٢ ه /٢٠٠١ م.

التطيلي " الرابي بنيامين بن الرابي يونة الإسباني اليهودي، ت، ٥٦٩هـ/١١٧٣م "

رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة: عزار حداد، دراسة وتقديم: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٢م

ابن تغري بردي "يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، ت: ٨٧٤ه/١٤٦٩م"

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، د.ت

ابن الجوزي" جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، ت: ٥٩٧هـ /١٢٠٠م"

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

ابن حجر" أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م"

إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق، حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر، ط١، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق، محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ط٢، ١٩٧٢م.

الحموي " شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٨م"

معجم البلدان ، دار صادر، بيروت ط٢، ١٩٩٥م.

ابن حوقل "محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم ،ت: بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م"

صورة الأرض ، دار صادر، بيروت، د. ط، ١٩٣٨م.

ابن خلدون "عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الإشبيلي، ت، ٨٠٨ه/١٤٠٥م"

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ، ط ٢، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

الداودي" محمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداودي، ت ٩٤٥ه/١٥٣٨م"

طبقات المفسرين، تحقيق، مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤٠٣ه /١٩٨٣م.

الدوادار" الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري ، ت: ٧٢٥ه/ ١٣٢٤م"

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، نشر الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٤١٩ه /١٩٩٨م.

الدواداري" أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، ت: ٧٣٦ه/١٣٣٥م"

كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق، هانس روبرت رويمر، نشر ، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ط١، د.ت

الذهبي "شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م"

تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق ، بشار عوّاد معروف ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ م.

سير أعلام النبلاء، تحقيق، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥.

ابن رستة "أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، ت ، بعد عام ٣٠٠هـ /٩١٢م"

الأعلاق النفيسة (المجلد السابع) ، طبعة ليدن ، ط١، ١٨٩١م.

السمعاني "عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، ت: ٥٦٢ه /١١٦٦م"

الأنساب، تحقيق،عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢ م.

ابن سينا " الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شرف الملك، ت: ٤٢٨ه /١٠٣٦م"

القانون في الطب، تحقيق، محمد أمين الضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠ه/١٩٩٩م.

السيوطي" عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت:٩١١ ه/١٥٠٥م"

تاريخ الخلفاء، تحقيق، حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة، ط١ ١٤٢٥ه/٢٠٠٤م.

الصفدي" صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ، ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٢م"

الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت ، ط١ـ عام ، ١٤١٨ هـ /١٩٩٨ م

ابن عبد الظاهر" محيي الدين بن عبد الظاهر، ت:٦٩٢ه/١٢٩٢م"

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق، عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، عام ١٩٧٦م

ابن عربشاه "أبو محمد أحمد بن محمد، المعروف بابن عربشاه ، ت: ٨٥٤هـ/١٤٥٠م"

عجائب المقدور في أخبار تيمور، كلكتا، الهند، د.ط، ١٨١٧م.

ابن عساكر "أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، ت: ٥٧١ه /١١٧٦م"

تاريخ دمشق، تحقيق، عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ /١٩٩٥ م.

العمري "أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي ، شهاب الدين، ت، ٧٤٩هـ/١٣٤٨م"

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ومهدي النجم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ٢٠١٠م.

العيني" محمود بن أحمد بن موسى الحنفى الشهير ببدر الدين العينى ، ت: ٨٥٥هـ/١٤٥١م"

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مركز تحقيق التراث، ط١، عام ١٤٠٧ه/١٩٨٧م.

ابن الغزي" شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي، ت: ١١٦٧ه/١٦٥٦م "

ديوان الإسلام، تحقيق، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١١ه /١٩٩٠م

ابن فضلان" أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، توفي بعد ٣١٠ه/٩٢٢م"

رحلة ابن فضلان لبلاد الروس والترك والصقالبة، تحقيق، سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي، دمشق، ط١، د.ت.

القلقشندي" أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ، ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م"

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د.ت.

ابن كثير" أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ت: ٧٧٤ه /١٣٧٢م"

البداية والنهاية، تحقيق، علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨ه/١٩٨٨م.

لسان الدين بن الخطيب (ت:٧٧٦ه/١٣٧٤م)

مفردات ابن الخطيب= قاموس للألفاظ الحضارية من القرن الثامن الهجري، تحقيق، وتقديم عبد العلي الودغيري، منشورات عكاظ، السعودية، ط١، عام ١٩٨٨م.

مجهول (توفى، بعد ٣٧٢هـ/٩٨٢م)

حدود العالم من المشرق إلى المغرب ،محقق ومترجم الكتاب عن الفارسية ، السيد يوسف الهادي ، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ، ط١ ،١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م.

المسعودي " أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي، ت، ٣٤٦ه/٩٥٧م"

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، أسعد داغر، دار صادر، بيروت، د.ط، ٢٠٠٤م.

المقريزي" أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني، تقي الدين، ت: ٨٤٥هـ /١٤٤١م"

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق ، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

المقفى الكبير، تحقيق، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١م

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٤١٨ه.

ابن منظور " محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي ت:٧١١هـ/١٣١١م"

لسان العرب ، دار صادر، بيروت ، ط٣، ١٤١٤ هـ.

ابن النديم" أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي ، ت: ٤٣٨هـ/١٠٤٦م"

الفهرست، تحقيق، إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤١٧ه /١٩٩٧م.

ابن النفيس" على بن أبي الحزم القرشي الدمشقي، ت ٦٨٧ه/١٢٨٨م"

المهذب في الكحل المجرب، تحقيق، محمد طاهر الوفائي- محمد رواس قلعجي، الرباط ، المغرب، ط٢، ١٩٩٤م.

النويري " شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت: ٧٣٣ه / ١٣٣٢م "

نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، عام ١٤٢٣ه.

اليافعي "أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد، ت: ٧٦٨ه /١٣٦٦م"

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، وضع حواشيه: خليل المنصور ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٩٩٧م.

ثانيا: المراجع العربية:

أحمد تيمور

معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق، حسين نصّار، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة – مصر، ط٢، عام ١٤٢٢ه/٢٠٠٢م

آمنة أبو حجر(دكتورة)

موسوعة المدن الإسلامية، دار أسامة، الأردن، ط٢، عام ٢٠١٠م

بالغزي "كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البابي الحلبي، ت: ١٣٥١هـ/م١٩٣٢م"

نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩ هـ.

بطرس البستاني

دائرة المعارف= قاموس عام لكل فن ومطلب، بيروت، د.ط، عام ١٨٧٦م.

محيط المحيط= قاموس مطول للغة العربية، نشر مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، عام ١٩٨٧م.

جابر سالم القحطاني

موسوعة جابر لطب الأعشاب، مكتبة العبيكان ، ط٢، عام ٢٠٠٩م.

جمال الغيطاني(دكتور)

ملامح القاهرة في ألف سنة: نهضة مصر للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧م.

حسام جاد الرب(دكتور)

جغرافية أوروبا الجديدة- دراسة إقليمية، مكتبة دار العلوم للنشر، مصر، ط١، عام ٢٠٠٧م.

حسن إبراهيم حسن(دكتور)

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ط١٤، ١٩٩٦م.

حسن حلاق(دكتور)

مدن وشعوب إسلامية، نشر دار الراتب الجامعية، بيروت، ط١، د.ت.

رجب عبد الجواد إبراهيم(دكتور):

المعجم العربي لأسماء الملابس «في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث» ، دار الآفاق، مصر، ط١، ٢٠٠٢م.

رجب عبد الحليم(دكتور)

انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، مصر، ط١، د.ت.

زكي محمد حسن(دكتور)

الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، دار الرائد، بيروت، د.ط، عام ١٩٨١م.

زينب على حسين(دكتورة)

الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط١ ، ١٣١٢ هـ.

سهيل صابان(دكتور)

المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية نشر مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط، عام ٢٠٠٠م.

السيد الباز العريني(دكتور)

المغول، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، عام ١٩٨١م.

السيد أدي شير(دكتور)

معجم الألفاظ الفارسية المعربة، دار العرب، القاهرة ، ط٢، ١٩٨٨م.

صلاح الدين محمد نوار(دكتور)

المرأة ودورها في المجتمع المغولي طبقا لمصادر المغول وقانون الياسا، نشر منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١، ١٩٩٩م.

عاصم محمد رزق(دكتور)

معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

عبد الحكيم العفيفي(دكتور)

موسوعة ألف مدينة، نشر أوراق شرقية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

على موسى ومحمد الحمادي(دكتوران)

جغرافية القارات، دار الفكر المعاصر، بيروت، د.ط، عام ٢٠٠١م.

فراس السواح(دكتور)

موسوعة الأديان، دار التكوين للنشر، سوريا، ط٤، عام ٢٠١٧م.

محمد جمال صادق(دكتور)

موسوعة تاريخ القفقاس والجركس، دار علاء الدين للنشر، دمشق، ط١، د.ت

محمد سهيل طقوش(دكتور)

مغول القبيلة الذهبية والهند، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

محمد عبدالشافي المغربي(دكتور)

مملكة يهود الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ط١، ٢٠٠٢م.

محمد على البار(دكتور)

المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ ، دار الشروق ، جدة ، ط١، ١٩٨٣م.

محمد محمد الرمزي

تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، قدم له وعلق عليه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

محمود سعيد عمران(دكتور)

إدارة الإمبراطورية البيزنطية في عهد قسطنطين السابع ، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

محمود شاكر (الشيخ)

موسوعة التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

مصطفى بركات (دكتور)

الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، عام ٢٠٠٠م.

ثالثا: المراجع المعربة:

بارتولد

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة، أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٩م.

توماس أرنولد

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخران، مكتبة نهضة مصر، ط٢، ١٩٧٠م.

رينهارت بيتر آن دُوزِي

تكملة المعاجم العربية، ترجمه، محمد سليم النعيمي، وجمال خياط، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، ١٩٧٩م.

ستيفن رنسيمان

الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ٢٠١٠م

ستيفان غراهام

أيفان الرهيب أول القياصرة ، ترجمة ، يوسف شلب الشام، منشورات دار الثقافة، سوريا د.ط، ١٩٩٦م.

ماركو بولو

رحلات ماركو بولو ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، عام ١٩٩٥م.

وِل ديورَانت

قصة الحضارة، ترجمة، زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت، د.ط، ١٩٨٨م.

ويستنفلد

جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة، عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط١، ١٩٨٠م.

ثالثا: الأبحاث والدرويات العلمية:

حسن على العلاق(دكتور)

المرأة في خانية القبيلة الذهبية(مغول القبجاق) من خلال رحلة ابن بطوطة، بحث منشور بمجلة دراسات في التاريخ والآثار، العراق، العدد٧٠، يونيو ٢٠١٩م

زمان عبيد وناس(دكتور)

مملكة الخزر وأحوال المسلمين فيها- دارسة في كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين حتى نهاية القرن الثامن الهجري، بحث منشور بمجلة كربلاء العلمية، ملجد١٢، العدد الثاني، ٢٠١٢م.

عبد الله راجح (دكتور)

العلاقات بين دولة المماليك في مصر والشام ودولة مغول القبيلة الذهبية في القفجاق في عهد قلاوون وبنيه(٦٧٨-٧٨٤ه)، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة ، العدد السادس والعشرون ٢٠٠٧-٢٠٠٨م

عبد الهادي التازي(دكتور)

مع ابن بطوطة من البحر الأسود إلى نهر جيحون، مقال منشور بمجلة المناهل، المغرب، العدد الثاني عام ١٩٧٥م.

محمد كريم الشمري(دكتور)

التأثير العربي على بلاد البلغار من خلال رحلة ابن فضلان (٣٠٩ه/٩٢١م) بحث منشور بمجلة القادسية للعلوم الإنسانية، العراق، المجلد التاسع، العددان٣-٤، عام ٢٠٠٦.

رابعا: الموسوعات: الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي نشر عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ط١، عام ١٩٩٩م.

موجز دائرة المعارف الإسلامية: ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط١، ١٤١٨ ه.